من مشاهد الطبيعة إلى حقائق الشريعة

الطالـب
محمود محمد محمد عمارة
(١٩٥٠ - ١٩٥٦م)

الطبعة الأولى
١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م

من مشاهد الطبيعة
إلى
حقائق الشريعة

الطالب

محمود محمد محمد عمارة

(١٩٥٠م - ١٩٥٦م)

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيـــد

يقولون :

إن الذاكرة ملكة مستبدة ... بمعنى :

أنها قد توافيك بما ترسب من قاعها من الماضى السحيق ...

وقد تضن عليك بما قرب من أحداث لم يجف مدادها بعد ..

وها هى ذى تجود علىّ بذكريات طال عليها الأمد .. ثم إذا برفيفها الحى يداعبنى ..

فأضبط عدسة خيالى عليها لايتعداها ..

فى محاولة للاستكشاف .. والاستشفاف ..

ومن بين مافاضت به الذاكرة من صور هذا الماضى البعيد .. هذا الموقف الفريد والذى أتذكره ثم أذكره :

كان ذلك فى صيف عام ١٩٤٢م : أذن مؤذن فى القرية : أيها الناس :

إنكم على موعد غداً مع الشيخ حسن البنا .. الذى سوف يسعد القرية بزيارته ..

وقبل الموعد المحدد بساعات كنا صفوفا فى المسجد الجامع..

وفى الطريق إليه كنا كما قال "أنيس منصور" وهو ينهب الأرض نهباً

فى طريقه إلى صالون العقاد :

لم تكن ترى .. ماحولنا

ولا تسمع من حولنا ..

لقد كنا نتحرى السمع .. والرؤية لحسن البنا وحده !!

ونهض **المرشد العام واقفا** .. وعندما نهض من مقعده .. واتجهت إليه العيون .. سحبها كلها معه !!

لقد وقف الشيخ .. فكان ذلك النور الساطع ..

فلما تكلم كان برهانه ذلك السيف القاطع ..

لاتستقبل من لدنه كلاما .. ولكنه النور يتسلل إلى أعماقك !

وإذا كانت المعانى فى أعماقنا .. ثم قد لانقدر على التعبير عنها ..

فقد كان حسن البنا .. ذلك الساحر الذى جاء لنفض الغبار عن هذا الجمال المحجوب ..

والذى كان مع لين حديثه .. قادراً على أن يكسر القشرة البادية .. عن اللب المخبوء !

وإذا كان من البلغاء من هو فصيح القلم .. عيىّ اللسان .. فقد كان المرشد فصيحهما معاً :

كان فصيحاً إذا تكلم ..

وفصيحاً إذا كتب

فإذا بمعانيه مكتوبة أو مقروءة فاذا بها وقد تغلغلت فى نسيج الدماغ .. وتمكنت من عضلة المخ !؟

وإذا كانوا يقولون : إن قيمة الجوهرة تعزى إلى قيمة مكتشفها .. فقد كان حسن البنا ذلك المكتشف .. ذلك الصياد الماهر الذى استطاع أن يطول ببلاغته .. وببساطته .. تلك الجواهر الراسبة فى قاع الشباب .. الذى كان دينه العمل .. وليس فقط .. الأمل ..

والذى هدأ من فورة الحماس .. ليكون البديل هو الإحساس بالمسئولية وصولا إلى الموقع الأفضل دائما :

يحمل المثال فى صدره .. فإذا اصطدم بالواقع .. فكانت الفجوة واسعة بين الرجاء والعمل .. استطاع أن يحفظ توازنه عندئذ بما يملك من :

قدرة على الملاحظة ...

واصطبار على تجاوز العقبة

لقد كان الشباب يومئذ يملك " النول " لكن " النسيج " كان مهلهلاً ..

وكان لابد من رائد لايكذب أهله :

يحميه من عثرة الرأى . وضحالة النظر . ومزالق التأويل. وذلكم هو : حسن البنا

ولقد كان من أعظم ماتلقيناه عنه :

كراهته للعنف .. تاركا للكلمة الطيبة حل أعضل المشكلات ..

وانبثقت عن هذه الفطرة المسالمة قاعدته الذهبية .. والتى تقول :

نتعاون فيما اتفقنا عليه ..

ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه

عناصر التكوين

كنت عندئذ فوق العاشرة بقليل .. وكانت أمواج الحياة تتقاذفنا بين مد وجزر .. حتى جاء البشير يمد يده فإذا نحن على الشاطىء الآمن فكنا مدينين له .. بالحياه :

(إن الحياة مدينة للذين أحبوا الحياة . والذين رأوا أن البناء أروع من الهدم . والتسامح أعمق من الانتقام .. والسلام أعظم من الحرب . ورضا النفس أعمق من المرارة .

وحب الوالدين أشرف من إنكارهما . ثم البحث عن آباء آخرين : فى الكتب أو فى الشارع) .

(إنه من الممكن أن يجد مجتمع من المجتمعات صيغة جديدة لتفكيره وحياته . وتكون الصيغة قوية ومقنعة .. ولكنه يتخبط فى تطبيقها .. لماذا ؟

لأنه لا يجد من يعلمه كيف يفعل ذلك . ومن الممكن أن يوجد « المعلم » ويكون قوى الشخصية . قادراً على الإقناع .. ويكون قدوة . ومثلاً أعلى .

ولكن .. بلا صيغة .. أى بلا نظرية تعيد ترتيب وتنسيق وتطوير أدوات العمل فى أى بلد) . وكان حسن البنا هو المعلم .. الذى أطل علينا فى هذه الليله المباركة فدخل حياتنا .. بشخصيتة .. وطريقته .. وأسلوبه السهل الممتنع : [إن العبارة السهلة شىء صعب . فالانسان لا يستطيع أن يكتب بسهوله الا إذا فهم .. ولا يستطيع أن ينقل هذا الفهم الى الناس بسهوله الا بعد أن يكون قد تمرس على الأداء السهل ..

والإنسان لا يكتسب السهوله الا بمشقة ووقت طويل].

وكذلك كان حسن البنا .. ومن أجل ذلك .. نجح فى صياغة جيل غير مسبوق ولا ملحوق (إن القماش فى يد جميع الخياطين .. لكن الخلاف فى تصميم الزى المناسب).

ذكرى لا تموت

ومنذ هذه الليله .. وصورته لا تغيب عن خيالنا .. وما زالت تسبح فى خواطرنا !

واستشهد حسن البنا .. ولكنه لم يزل حيا فى ضمائرنا .

ذلك (بأن مثله لا يختفى يوم يموت : فهو مثل الأنهار العظمى : يظهر عشرين عاماً .. ويختفى تحت الأرض عشرين آخرى .. ليفيض على سطح الأرض مئات السنين).

منبر الشرق

ثم اغتيل حسن البنا .. ولكنا لم ننس الذى حرك بعصاه السحرية تلك البحيرات الراكدة .. فتدافعت أمواجا .. ومهما كان القوى قوياً .. فإن إرادته لتنكسر أمام خادم عنيد .. وأقوى الطغاه قد يهزمه مظلوم .. صغير ؟!! .

ولقد هزم طغاته .. حيث لم يستطيعوا محو صورته من قلوبنا .. وتعبيراته التى طافت برأسه .. ثم طفت على ألسنتنا !

ثم عاد المرحوم « على الغاياتى » من غربته .. ومعه جريدة « منبر الشرق »

والتى أخذت على عاتقها نشر فكر الأخوان وما فيه من تسامح وإيجابيه ..

ولما حلت الذكرى الاولى لرحيل حسن البنا ناجيته بأبيات نشرتها .. « منبر الشرق » عندئذ وكان مطلعها :

ذكراك فى قلبى أجل وأصدق من كل ما يهوى الفؤاد ويعشق

ذكراك يا أبتى منار فى الدجى يهدِى الى الشطين من هو غارق ..

وهرعت بها الى « منبر الشرق » التى اقتطفت منها هذين البيتين فنشرتهما . وأحسست عندئذ أننى ولدت من جديد .. على صفحاتها بما كانت تنشر لى كل أسبوع .. ويوم أن كنت طالباً بالثانوى .

روافــد المعــرفــة

لا يتكون الإنسان فى المعمل .. من أخلاط .. وإنما هو الزمان والمكان والانسان .. كل أولئك يتعاون على تشكيل وجدانه وقواه المدركه .. وأقصد بالزمان :

هذه الأجيال التى عاصرناها .. ثم اعتصرناها فمنحتنا من تجاريبها ثمراً يانعة .

جيل الأجداد ..وجيل الآباء

ثم ثلة الإخوة الكبار .. وأبناء العم والخال .. كل أولئك أسهم فى تشكيل وجداننا بمثل ما كانت تقول الجدة العجوز :

(تزوج السمراء .. ودعك من البيضاء : لأن البيضاء تعتمد على « بياض » يدها فلا تغسلها .. لكن السمراء .. كلما تأملتها فرأت سمرتها زادتها تطهيراً) !!

ثم بمثل سلوك الآباء .. الذين كانوا حراصاً على صلاة الفجر بالمسجد الجامع ..

وكان يعجبنا أن يعود الوالد « بالخبز الساخن » والذى كان للكلاب فيه نصيب مفروض ..ولقد كنا نتساءل عن هذا المسلك الغريب فكان الاب يقول :

أنتم لكم ألسنه .. وبها تطلبون الخبز ..

أما الكلاب .. فلا تستطيع الكلام .. فنحن نطعمها من جوع لا تستطيع التعبير عنه !!

ونريد بالمكان : القرية التى كانت فى امتدادها الزمانى كاتساعها فى امتدادها المكانى :

وكانت بأشجارها وأنهارها . وأطيارها خير معلم ..

وأقصد بالإنسان : كتيبة المدرسين والمربيين .. والمحاضرين .. والذى مثل أحدهم بين يدى لجنة الأمتحان فلما سأله الشيخ أن ينشد بعض ما يحفظه من الشعر .. فقال له الطالب معتزاً :

من شعر الرجال .. أم من شعر النساء ؟!

ومن شعر الحرب .. أم من شعر السلام ؟!

لقد كان الطالب يحفظ خمسة وعشرين ألف بيت من عيون الشعراء ... المحدثين والأقدمين

الشيخ محمد الغزالى :

وأقصد من المربين بالذات رائدى ومعلمى : الشيخ محمد الغزالى

لقد كانت أسمعه يخطب فأقول : صحيح أن حسن البنا لم يترك من بعده كتبا وافره .. ولكنه بحكمته ترك مدرسته من المؤلفين من أمثال الغزالى .. الذى كان يتحدث عن أشياء تراها .. ويراها .. لكنه كان يستنطقها لتبوح له بأسرار لم تحط بها خبرا .. وأهم من حديثه .. سلوكه : وإذا كانوا يقولون : إن الملكَ لا يبدو ملكاً أمام خادمه الذى يراه فى القصر متبذلا .. فإننى صاحبت الغزالى فى بيته وخارج بيته فكان هو الداعية الانسان .. ورب البيان .. لقد قرأت له أول ما قرأت كتابه : « تأملات فى الدين والحياة بعد النظرات والعبرات » للمنفلوطى . فلما استمعت اليه كفاحا .. تأكدلى : أن كتابه لا يغنى عنه وإن كان سلاسل الذهب ! بمعنى أنه لا يعكس صورته كامله لأن أداءه .. وصوته .. شىء غير ما فى الكتاب !!

وقد أسعدنى غاية السعادة أن سمعت من قال عنى ذلك يوماً !!

وفى تحديد عواطفى نحو الشيخ .. كنت أحاول أن أكون متصوفا ..

يحس بالمعانى لكن تضيق الألفاظ عن حملها ..

كما يقول ابن عربى :

حار أرباب الهوى في الهوى .. وارتبكوا .

ومن هؤلاء الذين ارتكبوا : أبو نواس .. وشوقى

أمـا أبـو نـواس فـقـال : يقـول أنـاس ..

لو وصفت لنا الهوى فوا الله ∴ ما أدرى الهوى كيف يوصف

ثم جـاء شـوقـى ليقـول : يقـول أنـاس :

لو وصفت لنا الهوى لعل الذى ∴ لم يعرف الحب يعرف

فقلت : لقد ذقت الهوى ثم ذقته فو الله ما أدرى الهوى .. كيف يوصف !؟

ومن توجيهات الغزالى : يجب أن نتجه الى العمل الإسلامى : بناء المستشفيات .. بناء مساجد .. والمدارس ورعاية أيتام ..

وذلك بدل الصراع الدامى بيننا وبين الحكام .. إن ذلك أجدى على الدعوة التى لا تنمو ولا تزدهر إلا فى جو هادىء يتيح لأغصانها أن تسمق .. ولظلالها أن تمتد .. إن الحماس لا يحل قضايا الشعوب . وإنما هو العمل الإيجابى البناء .. والذى يجب أن يكون شغلنا اليوم .. وغداً .

نصائح الزملاء : شجعنى كل ذلك على أن أجرد القلم من غمده لآخذ مكانى بين محررى « منبر الشرق » .. وقد نصحنى بعض الزملاء أن أتخلص من تقليدى للشيخ محمد الغزالى ..

وكانت لوجهة نظرهم مسوغات :

فالعقاد .. رفض قراءة « رسائل الأحزان » للرافعى .. لأنها كانت فى « فلسفة الجمال » وهو مقدم على تأليف كتاب فى هذا المعنى وخاف أن يتأثر به ..

و« سهير القلماوى » رغم اعترافها بأبوة د« طه حسين » الروحية .. لكنها رفضت أن تقلده .. هو .. ومعه « أحمد أمين » !!

بل إن .. الغزالى .. نفسه قال لى :

إن المرشد العام .. لما لاحظ شدة تعلقى به .. وتقليدى له .. قال له :

حاول أن تكون لك شخصية مستقلة ياشيخ محمد !!

ولكنى كنت محبا للرجل حبا أقنعنى بأن النظر إلى وجهه عبادة ..

وإذن .. فلا أبغى به بدلا .. ولا أبغى عنه حولا !

وأن مايبدو تقليدا له .. إنما هو قانون : الأرواح جنود مجنده ..

ماتعارف منها ائتلف ..

وكان هذا الذى يحسون .. لونا من الائتلاف بين الأرواح .. عصياً على الزوال.

من بركات "منبر الشرق"

١- كان من قراء "الجريدة" المرحوم د. محمد عبد الله ماضى والذى

كان "السكرتير العام للأزهر" وقد شجعنى على ملأ من زملائى بكلية أصول الدين وكان مما قاله وأعتز به [تعجبنى فيك روحك المؤمنه].

ولقد اختزل بهذه الشهادة .. تلك المسافة البعيدة بين رجل من صناع القرار .. يتربع على كرسيه هناك فى القمـــة .. وبـيين طالب لاحول له ولاطول !

٢- وقد استدعانى المرحوم الشيخ " محمد على السايس" وكان عميداً للكلية .. ثم أمر بالتوجه إلى دار الافتاء .. لأصرف من هناك مكافأة - ستكون شهرية من رواق الأحناف ..

ولما سألته عن السبب فى اختيارى لأكون من المستحقين لهذه المكافأة أخبرنى أن "الشيخ محمد حسنين مخلوف" .. مفتى الديار المصرية عندئذ هو الذى قرر ذلك .. بعدما قرأ لك فى "منبر الشرق" والتى كان يحرر فيها باب الإفتاء.

٣- وقد ربطتنى الكتابة بمجموعة من الأصدقاء الأعزاء .. الذين لم أسعد بلقائهم .. وكانوا ثروة تربو على كل مايتنافس فيه المتنافسون من عرض الدنيا.

الكلمة التى لم تنــشر

وكانت نفسى .. بين الحين والآخر .. تقف بى على حافة الغرور .. لأن كلمة واحدة لى .. وعلى مدى ست سنوات .. لم تردّ .. وإنما كانت كلماتى تنشر تباعاً..

وذات يوم .. ذهبت لمقابلة صاحب الجريدة ورئيس تحريرها المرحوم الشيخ .. على الغاياتى لذ سأله عن سر حجب هذه الكلمة والتى كانت بعنوان "مرحبا بالمصائب".

وأخبرنى الشيخ بأنها منعت بأمر "الرقيب" . ولقد فزعت عندئذ لأن هذا الحجب يعنى أننى دخلت عالماً كنت أسمع عنه ولا أراه !

وتساءلت على مسمع من الشيخ :

إذن فأنا موضوع تحت المراقبة !!

ونصحنى الشيخ بالإحتياط .. لأن البلاد كانت تمر حينئذ بفترة عصيبة .. وهذا الاتجاه من التأليف .. يشعل الحماس الذى قد يضر ولاينفع.

ولكن شعورى بالفزع خامره شعور بالإعتزاز .. لأن ذلك الموقف يعنى أن "قلمى" صار شيئاً مذكوراً !!

والأمر كله لايعدو أن يكون مجرد فكرة ..

أنفعل بها .. ثم أصبها على الورق الذى أوشك أن يحترق بها هذه المرأة ..

ولقد طمأننى الشيخ بأنه سيشكو الرقيب .. إلى رئيسه ..

أما أنا .. فقد عدت إلى القرية فى رحلة استجمام إلى أن تنجلى هذه السحابة بسلام.

وأذكر أننى عندما عينت مدرساً بمعهد أسيوط الدينى بحثت عن الرقيب وهو .. الأستاذ تمام .. وكان من أسيوط ..

سألت عنه لأذكره بموقف كان منعطفا خطيراً فى حياتى .. بسببه هو ..

لكننى لم أجد الرجل الذى علمنى ألا أندفع مع موجات الحماس .. وعلىّ أن أقدّر لرجلى قبلى الخطو موضعها .. وأن للحديث مداه .. الذى لايتعداه.

ثم واصلت الكتابة .. وفى خيالى هذا الذى حدث حتى لايزل قلم بعد ثبوته..

هذه الكلمات

وقد أخترت عنوان هذه الكلمات :

(من مشاهد الطبيعة إلى حقائق الشريعة)

لأننى لم أكن استمد عناصرها من مخزون علمى وافر ..

فلم تكن القراءة الخارجية مهمتنا .. من حيث كان فى مقررات الأزهر مايكفينا !

إلى جانب "مخيلة" نشطة :

ترى الواقع .. حياً على الطبيعة ثم أحاول أن تربط مشاهده بحكم

الدين وحكمته.. :

إنه الواجب .. أحاول اسقاطه على الواقع ..

لقد كانت التجربة العملية .. وكان الموقف الحى زادى على الطريق :
آخذ منه ماتيسر لى .. كما أشاء ..

ثم لأطوعه كما أشاء .. فتجاوزت مجرد التلقى .. إلى محاولة العطاء.

إن الكلمة تسمعها .. قد تكون مهمة .. ولكن أهم منها الموقف .. الذى قد يبدو بين يديك صامتاً .. لكن لسان حاله أبلغ من الكلام :

تتملاه .. ثم تستبطنه .. فإذا هو "ماسّ كهربى" يشحنك بالطاقة الدافعة وهكذا كانت القرية :

لم تكن مجرد مسقط الرأس.

ولكنها بالإلهام .. كانت مرفع الرأس !

حصاد السنين..

وهذه الكلمات التى بين يديك الآن هى حصاد هذه السنين من ١٩٥٠ الى ١٩٥٦ أقدمها الئ القارىء العزيز تجاريب .. ومواقف .. أقدمها بلا تغيير ولا تطوير ..

وقد لا تجد فيها « علماً » ولكنك لن تعدم فائدة .. حين توازن اليوم بين فكرة ولدت منذ أكثر من نصف قرن .. وبين نفس الفكرة اليوم حين يبسطها

صاحبها بعد هذا الزمن الممتد .. ليكون الحديث القصير مقالاً ضافى الذيول .. وحين يصير المقال كتاباذا أبواب وفصول ؟!

إنها «مسودات» الحياة .. فى بواكيرها الأولى تصير اليوم كائنات أقرب الى الكمال !

وفى هذا يقول العقاد – مع الفارق طبعا :

[والحقيقة كما قلت مراراً أن الأحياء الدنيا هى « مسودات » الخلق التى تتراءى فيها نيات الخالق كما تتراءى فى النسخة المنقحة ، وقد تظهر المسودات أكثر مما تظهر بعد التنتيح / فإذا اطلع القارىء على كتاب الحشرات ، فليس من للازم اللازب أن يطلع عليه ليكتب فى موضوعه ، ولكنه يطلع عليه لينفذ الى بواطن الطبائع وأصولها الأولى ، ويعرف من ثم كيف نشأ هذا الأحساس أو ذاك الإحساس ، فيقترب بذلك من صدق الحس وصدق التعبير ، ولو فى هذا الموضوع .]

ويعنى ذلك : مطالعة هذه الأفكار .. مأخوذ فى الاعتبار سياقها الذى مضى به العهد بعيدا بعيدا فى أطواء الماضى ..

بحيث لا يجمل محاكمتى الآن .. الا بمقياس عصرها .. لا بمقياس اليوم ..

ويحضرنى الآن ما يجلّى هذا المعنى .. ما قاله المرحوم د. محمد عبدالله دراز فى « النبأ العظيم » :

إنها كلمــات :

[تتحدث الى كل عقل واع ناقد : لا يأخذ ما يأخذ الا على بصيرة وبينه ولا يذر ما يذر الا على بصيرة وبينه . والى كل وجدان تجريبى ذائق لا يكتفى بالخبر عن المعاينه .

ولا يستغنى بالوزن .. عن الموازنه . إنه حديث : يبدأ من نقطة البدء . فلا يتطلب من قارئه انضواء تحت راية معينه ولا اعتناقا لمذهب معين .

ولا يفترض فيه تخصصا فى ثقافة معينه . ولا حصولا على مؤهل معين .

بل إنه يناشده : أن يعود بنفسه صحيفة بيضاء الا من فطره سليمة . وحاسة مرهفة . ورغبة فى الوصول الى الحق] [1] ويعنى هذا أيضا : الا يجرد القارىء حسامه من غمده .. وانما هى : العود الى الماضى .. فى محاولة لتتبع جذور تجربة ممكن أن تكون لطالب العلم اليوم .. درسا يرجى أن يكون مفيداً . وأذكر هنا ما قاله الدكتور طه حسين فى كتابه « جنة الشوك »

(فاستمتع بالأدب ، وتعمق معانيه ، وذق جماله ، كما تستمتع بالحديقة ، واجعل بحثك عن التاريخ الأدبى كبحث أستاذ الزراعة عن أصول الزهر والشجر ، ولا يصرفك عن المتعة ، ولا يزهدك فى اللذة ، ولعلة أن يغريك بهما ويرغبك فيهما . أليس من الرائع أن يخرج الله الحى من الميت . والجميل من القبيح !!) .

---

(١) [النبأ العظيم د. محمد دراز]

(فلنجرب إذاً ، ولنمتحن أنفسنا ، ولنمتحن لغتنا ، ولنمتحن ذوق القراء . وقد جربت وأذعت مقطوعات قليلة لا تبلغ الست أو السبع فى الأهرام . فرضى الناس وسخطوا ، وأثنوا وعابوا . ولست أريد من الانتاج الأدبى إلا أن أذوق الرضا والسخط جميعاً وإذاً فلنمض فى التجربة ، وقد مضيت وهأنذا أقدم إليك مائة ونصف مائة من هذه المقطوعات فاقرأ إن شئت ، وارض إن أثارت القراءة فى نفسك الرضا ، واسخط إن أثارت القراءة فى نفسك السخط ، وأنا أعفيك من الثناء والتقريظ مخلصاً وأبيح لك النقد والعيب مخلصاً أيضاً ، وأتمنى أن يتاح للشباب من القراء أن يحاولوا من ذلك مثل ما حاولت ، ويبلغوا من ذلك أكثر مما بلغت . فالله يشهد ما كتبت ولا خطبت ولا حاضرت الا وفى نفسى أمنية هى أن أدفع الشباب الى أن يعلموا ويعملوا وينتجوا ، ويتاح لهم أكثر مما أتيح لى من النجاح والتوفيق)

وينوب عنى العميد أيضا بقوله :

(ثم أنا أثق بعد هذا بأن ما يقال فى نقد الناس وحمدهم . إنما هو أشبه بالمرايا :

يرى الناس فيها أنفسهم . لأننا لا ننقد عفاريت الجن . ولا نحمد الملائكة الأبرار . وإنما ننقد ونحمد ما نرى . وما نعلم من أعمال الناس وآثارهم) !.

١- طه حسين : جنة الشوك / ١٨

وقد استعمل العميد كلمة "نقد" فى معنى : العيب فقط وهى فى اللغة تعنى : ذكر المحامد والمثالب معاً ..

وزيـــر فـــى القريـــة

أية شهادة كان يحملها أرسطو ؟ بل أية اجازة كان يحوزها محمد عليه السلام سيد العالم كله ؟! .

وهل من مقومات الرجوله أن يكون الشخص فى كليه أو مدرسة ؟

أننى بلوت أناسا أميين .. فلعمرى لو وضع أحدهم فى كفة أمام حفنه من أصحاب الشهادات لرجحت كفته بامتياز !

ويكفيهم شرفاً أن محمدا أستاذ الدنيا .. كان أميا .

وليست العظمه وقفا على فئة وجدت من الامكانات ما يؤهلها لأن تحمل « شهاده » .

بيد أن أشجار العظمة الفيناء لا تنبت الا فى أرض طيبه .. عصارتها الحية خلق حميد .. وأنهار العرق المصبوب سقياها .

فليست معرفة الخط أو النحو اذا قلادة تسجل اسمك فى كتاب الرجال !

دارت هذه الخطوات فى نفسى .. وأنا أرمق من بعيد فلاحاً يعزق أرضه منفعلاً .. كلما أوشكت ضراوة العمل أن تنال منه .. آوى الى الظل الوريف يجتر أفكاره فى إعياء .

تعتمل فى أعماقه أحاسيس شتى . فتلتمع فى صفحة وجهه آمال رطاب فى غد سعيد .

أقتربت من الرجل ..

وكانت غشاوة الأصيل تجثو تحت سياط الظلام القاسية .. ولمحت فوق

راحته السمراء نتؤات خلفها عمله المضنى .

وبدأت الحديث مشيراً الى يده :

تلك يد يحبها الله ورسوله !

وأعتدل الفتى المجاهد راضيا .. يود لو يسمع من «الشيخ» الأزهرى مزيداً يرد عن نفسه الثكلى ظلال الأسى . وكان من الطبيعى أن أقارب بينه وبين أخيه الموظف !

فهو فى نظره يسكن السماء .. بينما هو لم يزل طريح الأرض .. لطف به ربه : فأبدله بنباح الكلاب مذياعا يغنى !

ورضى عنه اذ انتشله من بين تلال السماء يحوطها آسن الماء .. وأجلسه فوق هضاب «الأندلس» تجرى من تحت رجليه مياه النيل الصافيه .

وكفكفت من تلك الحدة قائلاً :

لقد عكست الآيه يا رفيقى : فأنت الذى فى السماء . ولكنك لم تعرف بعد مكانك السامى .

ألم تر الى شهادته التى حصل عليها فى العام الماضى ؟

أن خطوطها الحمراء ما هى الا قطرات دمك الغالى ؟

وزركشتها الصفراء إن هى الا أنهار عرقك المسفوح ..

قد استحالت زخارف تمنح صاحبها نعيم الحياة . وخضرتها الزاهية يا أخى لاشك ظلال غرسك الجميل .

فليست شهادته غير «شيك» تملكه أنت ... ولكنك كنت كريماً .. عندما

سلمته اليه ليصرفه .. من بنك الحياة !!

لك الغد .. يا صاحب اليد الطولى .

لقد كان أخوك قطعة من الأرض جرداء .. فكنت أنت مطر الحياة صب عليها .. فأنبتت وروداً وثمرا شهيا . فلولا قمحك العزيز لمات جوعاً .. ولولا عرقك الموار لقضى حياته ظامئاً ..

ويح نفسى : كأنى أنظر اليه وقد تسلل فى أخاديد الأرض .. فأصبح بعد حين ذرة وقطنا . وقمحاً . !!

كنت يا رفيقى عودا منحه شرابا طهورا .. وطأطأت رأسك فى تواضع .. فامتدت يد أخيك الموظف فاعتصرتك عصراً .. وارتوت من معينك سكرا ورزقا حسنا .. ثم تركتك ذبالة أقرب الى الموت منها الى الحياة !!

فلا يغريك لبوسه .. فانه بعينه قطنك الأبيض خاطة مكافح مثلك !

بينما يمج يراعك أنت تبرا ! وأين الثرى من الثريا ؟!

حقلك المنشور انما هو صفحة بارزة من كتاب الحياة .. صفحة كتبتها أنت بفأسك الثائرة . .

أنظر الى أعواد القطن المحتشدة وقد حملت جناها الطيب .. انها صفحة كتبتها بيراعك الماضى .

وتأمل حقل الذرة الممدود .. تلقاه سطوراً من صنع يدك المباركة . ألا ما أجمل ما رسم لنا يراعك من حدائق فينانه .. وأشجار ريانة .. تسر

الفؤاد وتبهج العين !

أنها نبع أصيل .. تفرعت منه أجمل ما وصل اليه عباقرة المصورين من لوحات . ويح قلبى ! .

مكافح تنضح يداه ذهبا وحريرا .. ثم هو يعيش مع البهائم فى مكان واحد .. تحت سقف واحد ؟! .

أطعم غيره وبات جائعا .. كسى الخلق وأصبح هو عرياناً !!

وتراءى لنا من خلال الاغصان قرص القمر الساوى ..

يضرب بأشعته الرفافه الليل فيشعشها .. اذاً .. حان الوقت فودعت سميرى الحبيب . ومضى الفتى الفلاح .. يحمل فوق كتفه القويه فأسه الماضية ..

أجل : مضى وزير مصر .. يحمل قلمه الباسل .. وزير لولا امضاء قلمه فى جميع الشهادات لكسدت تجارتها .. ولم ترفع أحداً . . .

خدعت نفسى

يقولون أن عداوة الصديق أعنف بكثير من عداوة الرجل العادى ..
لأن عداوة الصديق مبنية على سيئات محققة .. لمسها فيك .. ورآها بعينه ..
وعلى أساسها بنى حكمه عليك

ومن ثم .. فمن العسير أن تعودا الى سالف عهد كما الا بعد جهد
جهيد .

أما عداوة الرجل العادى . الذى لم تربطك به صلة ما .. فهى عداوة
واهية الأساس .. كسحابه صيف عن قريب تزول .. لأنها قد تكون مبنية على
سيئات وهمية افترضها فيك .. وهى لذلك هينة رقيقة .. سرعان ما
يغيب نجمها . اذا ما تكشفت له نفسك لسبب قد يكون ضئيلاً ..

ومنذ أيام تأزمت الأمور بينى وبين شخص لا تربطنى به أية رابطة
. ولم أستطيع أن ألتمس لنفسى عذراً فى موقفى منه .. أو فى موقفه منى .

وهمس فى أذنى صديق بأن فلانا أساء اليك فى محفل عام
وأمسكت بالقلم لأكتب له خطابا من نار !

وحشدت له فى الخطاب كل ما أحفظ من عبارات الاهانه
والتجريح !

والغريب فى الأمر.. أننى بعد أن فرغت من كتابى شعرت بسحابة
الضيق تنزاح من فوق صدرى شيئا فشيئا .. وأصبحت لا أحمل له سوى
عاطفة المحبة والشفقة وكأن شيئا لم يحدث .

وفرحت .. لأننى وجدتنى قد عثرت على كنز أى كنز !

فكلما بعدت الشقة بينى وبين أحد فلا تحتاج الأزمة سوى قلم وورقة ثم بضع كلمات أسطرها بعدها ينتهى كل شىء !!

ومع هذا ..

فهل أستطعت أن أهزم نفسى ؟! كلا ..

فهذه لعمرى مرتبة بعيدة المنال !

إن كل ماصنعته كان فقط قطعة من الحلوى ... أعطيتها لهذا الطفل الصغير أقصد نفسى - فسكت عنى صراخها الناهب المستطير الى حين !

ويوم تنتصر الارادة الانسانية على النفس الأمارة .. سوف لا تجد فى الدنيا ظلما أو أنانية .

ولعمر الحق أنه خير علاج يطب الانسانية الحائرة فى صحراء الأنانية والتطاحن الأعمى .

ولقد تقدمت الانسانيه تقدما ملحوظا فى ميدان الرقى .. واستطاع الانسان أن يهزم الميكروبات .. ويغوص فى أعماق البحار. ثم نازع الطيور سلطانها . فاتخذ له من الهواء مركبا سهلاً ..

وبقى عليه - كما قال تشرشل - اذ أراد لنفسه عصرا ذهبيا .. أن يهزم عدوه اللدود : نفسه !!

بين النخيل

وأسرع القمر فأختفى تحت جنح الغيب .. وتيقظت الشمس الدافئة فأنتفضت لها الطبيعة تفرك عينيها بعد نوم طويل .. وهرعت الى الحقل المديد لأستقبل الصباح الوضىء هناك .. ها هى ذى تيجان النخيل .. تتمايل شمالاً وجنوباً .. كأنما هى عشاق حالمون

.. أسكرتهم غمغمة النسيم المطلق .. فهاجت فى أفئدتهم ذكريات الماضى . وآثار أنتباهى عود الفول يقف وحيداً .. قد اشرأبت اليه طفيليات الأعشاب . كأنما تريد أن تتسلقه فتطرحه أرضا ..

وفى الوقت الذى تحاول فيه أن تمتص من تربته اكسير الحياة .. أجده يصب هو فوقها دموع الندى .. يمنحها ماء الحياة !!

وعلى الرغم من كثرتها ووحدته .. فقد شق الفضاء عودا دانى القطوف يحمل على كاهله حبات راطابا فيها غذاء للناس ثم أقبل الفلاح وأطاح بفأسه طفيليات الأعشاب .. فطارت فى جوز الفضاء رماداً .

ذكرنى هذا المشهد الفريد بقصة تصعد فى سلم الماضى سنين عددا ..

قصة لم تزل الى اليوم أروع ماوعت الحياة .

تلك هى قصة محمد ﷺ :

فلقد ولد فى صحراء الوجود نبته فريدة .. لا أب لها ولا أخ ..

وتلمست طريقها المستقيم على هدى وبصيرة فأثمرت وأثمرت .. ولم يكد يمتد ظلها على الارض اللاهبة .. حتى تجمعت العصبية الجاهلة

وأقسمت على أن تمحو من الوجود هذا الكافر بالعزى ..

ولكن محمدا المكافح لم ييأس .. ومضى يغرس أعواد الوحى المثمرة فى جوف الجزيرة المقفرة .

وبقدر ما كان يحاول أن ينفخ فيهم من روحه . ويعتصر لهم من جسمه .. كانوا يتفننون هم فى التنكيل به والنيل منه أيما تفتن !!

أريد حياته ويريد موتى !

صبوا عليه فضلات الطعام تارة .. ورموه بالتراب آخرى .. وأغروا به صبيانهم فاستهزءوا به استهزاء معيبا .

ويصل الحد الى أن رفع طاغيتهم حجرا غادرا يريد قتله .. ولكن عين السماء كانت ساهرة !

فغلت يد الخيانه وحفظت حياة الرسول ..

بل حياة الدنيا كلها ..

وبقى محمد اليتيم غصنا باسقا ينشر فى أرجاء الأرض عطر المحبة والسلام .. وامتدت يد الأصدقاء والأعداء فأكلت من جناه غذاء شهيا .

ثم أقبل القدر الغالب يحمل فأسه القاضية .. وأطاح بهذه الأعشاب البشرية من تحت أقدامه .. فطارت فى جوز الفضاء ومادا !

ذكرى لأولى الألباب

الأ كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محاله زائل

نعم .. كل شيء الى فناء .. والساعات الهنيئة فى حياة الشخص ما هى الا خطوة أولى نحو أخرى عوابس ..

ما طار طير وارتفع .. الا كما طار وقع

النهار الضاحك يغالبه الليل الكئيب .. والحشائش الخضراء ينتظرها المنجل القاسى .. والوردة الحمراء أوشكت أن يطوقها الذبول ..

والطائر الخفاق فى مسرى الهواء ترمقه فى حذر شباك الصائدين .. والشمس فى الصباح تطل من شرفة الغيب باردة الأنفاس .. وإذا بها فى كبد السماء تحرقنا أشعتها الحرى .. ثم تنحدر الى الغرب وئيداً ..

وأنك لتراها وقت الأصيل شاحبة اللون . كمن أضناه طول السفر ..

ثم تجنح الى مغربها جامعة هلاهل نورها فوق الربوع العالية ومن تحت أقدام النخيل .. استعدادا للرحيل .

وهذا هو دور الانسان على مسرح الحياة .. يأكل الطعام .. ويشرب الشراب .. وأقرب اليه من حبل الوريد سلطان الموت الغالب .. ففى لمح البصر .. تستحيل نضارة الوجه عبوسا .. وتنقلب العين البراقة الى قطعة من الظلام .. ثم يحمل على الأعناق .. الى مصيرة المحتوم .. الى القبر .

الباب السرمدى الذى خلع عليه الدهر هيبه ووقاراً ..

أبكيك يا صديقى العزيز .. فلقد أحببتك ..

أحببتك .. لأنى وجدت فيك نور عينى .. ومتعة أذنى .. وغذاء روحى ..

ورشاد فكرى ..

أحببتك ..

وودت لو تستمر صحبتنا أبد الآبدين .. ولكنك آثرت الفراق ..

وتركتنى مع الايام .. وحدى !

فيا للأقدار التى حققت أمانيك . لقد أشاروا على أن أخاصمك فلا أصومك .. حتى أستطيع أن أؤدى الامتحان .. بنجاح !

فقلت لهؤلاء الأعزاء ..

أو يترك المريض نفسه تذهب سدى .. وبين يديه أقراص الدواء .. يذوب فى حرارتها جليد المرض ؟!

خسئت اذا وضل وجهى ..

وبئس حامل العلم أنا اذا اتخلفت .. وفى يقين .. وفى قوة .. هرعت الى ساحتك المطهرة .. أرجو النجاح فى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ..

إلا من أتى الله بقلب سليم : الحجرة المعتمة فى عين الشمس .. المحراب الهادىء لعشاق السكون ..

ثم يرقد فيه وحيدا .. فرشه الحصباء .. وغطاؤه أطباق الظلام .. وحارسه العمل الصالح فى أيامه الخوالى .. ثم يعود سيرته الاولى : ترابا تذروه الرياح .

ظلام ببطن الام ليس له سر لعمرى .. كأن العمر متصل الدجى .

فأوله قبر وآخره قبر !!

وهكذا .. تتوالى العبر .. وتتعاقب العظات ..

أهتزت المنابر خشية .. واضطربت سقوف المساجد هلعا .. ونطق
الجزع الذى كان يخطب فوته الرسول عليه السلام ..

ولكن قلب لانسان رابض فى صدره لا يتحرك ..

جامد لا يلين .. يالقومى !

اذا كان فى موت الحياة مرارةً ∴ فموت شعور المرء حيا هو المر !

على مسرح الحياة

من هذا الذى عاش كل عمره سعيداً راضياً عن الحياة ؟

من هذا الذى صادقته الأيام وأعطته من الجاه والمال قدراً كبيراً .. ثم لم تأت فى ساعة لتجبره على دفع الثمن غالياً..

ألا ان الحياة مدرسة : فيها طالب يجد ثم يكون نصيبه الفشل آخر العام. وآخر لايحفل بكتبه مطلقاً ثم هو يعد من الناجحين.

والقدر الواعى لايدين بمبدأ البقاء على حال. والمرء اليوم نبات نعمة الحياة ثم هو غداً حصاد نقصها !

وحياة الناس زاخرة بقصص طبيعية لم تنمقها ريشة الفنان. ولم توفق بين مناظرها أصابع المخرجين.

هذا إنسان يحب طفلا حبا جما. وكلما تلاقيا أضفى الكبير على الصغير من الحنان مايشعره أن له فى قلبه مكانا. ويتكرر هذا الحنان كلما تكرر القاء.

ويشب الطفل ويصبح يافعاً. وتبدأ قدماه تحملانه إلى مستقبله المرقوب. وينتشر صيته ويرفع ذكره. فقد غدا طالبا ناجحا يؤدى واجبه أداء منظما.

وينظر إلى الكبير لترى الشرر يتطاير من عينه . والتحيات العذاب تستحيل على شفتيه .. تحيات جافة لاروح فيها ولا حياة. وهكذا يرفع القدر الواعى صولجانه ثم يهزه فى كبرياء فيمسى الطفل الحبيب عدوا ! لماذا ؟

لأن هذا الكبير لم يكن يسمع إلا اسمه. وإذا نظر فى المرآة فلا يرى إلا نفسه .. وإذا كان يوم الجمعة ألفيناه الخطيب الوحيد ! وبين عشية وضحاها وجد من طفل الأمس رجلا ينافسه اليوم .. وهذا أمر لم يكن فى الحسبان قبلا ..

ويرسل اليك صديق يسكن فى بلد بعيد يطلب فى حرارة أن "تتكرم" فتسعى له فى مهمة هو فى أشد الحاجة اليها .. وأنت من أشد الناس اخلاصا لها.

وتسعى أنت جاهدا. باحثا منقبا. تاركا مصلحتك الخاصة حتى تنتهى مهمة الصديق. وانك لتدفع من جيبك نقودا كما تنفق من جسمك وقودا .. ثم يتدخل القدر فيملأ الطريق شكوكا. وكلما جاوزت عقبة صادفتك أختها.

وأخيراً تخفق فى سعيك ولاتستطيع لهذه المهمة قضاء. وتقف أمام الصديق تدافع عن نفسك اللاغبة..

وتحشد الأدلة والشهود..

غير أن صديقك يسد أذنيه عن صياحك العالى. ويغمض عينيه عن كل ماأتيت به من شهود. ويحكم فى قسوة بأنك لم تفعل شيئا.

لقد تبين أنه لم يأبه بشئ .. فنظرته الى الصديق هى أن يكون سهما من سهام القدر .. يأمر فيطاع.

وتنتهى القصة لتبدأ قصة أخرى وأخرى.

هذا هو نظام المرور لمن أراد أن يمشى فى طريق الحياة.. وتلك هى الضريبة التى لابد أن تبذلها كى تحصل على شهادة من مدرستها .. نعم تلك فلسفة الحياة تفرضها علينا فرضا .. رضينا أم أبينا.

امتحان الرجولة

اذا اشتملت على اليأس القلوب

وضاق لما بها الصدر الرحيب

واوطنت المكـارمه واطمـأنت

وأرست فى أماكنها الخطوب

ولم تر لانكشاف الضر وجها

وما أغنى بحيلتـه الأريـب

أتاك علـى قنوط منك غـوث

يمن به اللطيف المستجـيب

وكل الحـادثات اذا تنـاهت

فموصول بها الفرج القريب

فى تاريخ الإنسـان لحظات تشـتد عنـدهـا المصـائب. وتتحكم فـيـهـا صروف الأيام.

ويجد الإنسان نفسه وحيدا على الشاطئ المجهول.. قد استوحشت من حوله الدنيا. وأظلم فى ناظريه الوجود..

وفى ضره هذا الحزن .. وفى رحاب ذلك الضيق .. يحس أنه فى مقام يسمح له بالاعتراض على تصرف المقادير .. فيقول ماذا صنعت يارب حتى أسام هذا العذاب .. ثم يمشى الهوينا فى شطحات فكره متأرجحا بين الانتباه الإرادى نحو مايرضى الله والناس .. والانتباه الانبعاثى نحو ما يرضى نفسه الأمارة بالسوء.

وبعد أن تهزم ارادته الماضية فلول الشيطان .. يسطع أمامه نور

اليقين .. وحينئذ يفيق من غفوته .. ثم يحمد الله الذى لايحمد على مكروه سواه.

هذه هى الدرجة العليا من الفهم .. لايصل اليها غير الرجل المؤمن الذى صهرته حرارة الإيمان. ونورت فى جوانب نفسه اشراقة الحكمة.

أما هؤلاء الذين استبد بهم الهوى. وأعماهم الشيطان فهم فى ضلالهم يعمهون.

وكم لله من لطف حفى

يدق خفاه عن فهم الذكى

وكم أمر تساء به صباحا

وتأتيك المرة بالعشى

مستحيل أن يسير بنا قطار الزمن فى سرعة واحدة. ومن البلاهة أن نطلب العيش الراغد دائما فى حياة لاتصفو إلا لتكدر. ولاتعطى إلا ساعة أن تعزم على الحرمان.

فحرى بالمؤمن الكامل أن يتقبل المصائب فى ثبات وجلاد. بفم باسم. وقلب حامد. وعقل عاقل.

ان الله سبحانه لم يشأ أن يترك عباده فى بيداء الحياة شاردين تسوقهم غرائز عمياء.. وتجمح بهم شهواتهم الى جنات الدنيا الغاربة.

فعقد لهم امتحان الرجولة !

حتى يعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين.

خلق لنا الأرض سماطا. والبحر صهويجا. والهواء مروحة. والشمس

ضياء والقمر نورا .

ثم طلب منا أن نؤدى ضريبة هذه النعم "ولنبلونكم بشئ من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات .. وبشر الصابرين " ولايخفى على اللبيب مايفيده التعبير " شئ "

فهو يشير إلى أن المصائب مهما اشتدت واستحكمت حلقاتها . فهى خفيفة لم تفارقها رحمة الرحمن.

ألاوان من الخطل فى الرأى أن تعتقد أن المصائب من دلائل غضب الله عليك.

فالله سبحانه اذا أحب عبداً ابتلاه. فإن صبر اقتناه. وان رضى اصطفاه.

انها " حقن " الهية تطهرها مما وقر فيها من سيئات أقوالك وأفعالك.. والنافذة التى تطل منها البشرية الى هدفها البعيد .. الى حياة المجاهدين الذين أوفوا فصبروا فكان لهم النعيم المقيم فى جنات عرضها السموات والأرض.

دع الأيام تفعل ماتشاء

وطب نفسا إذا حكم القضاء

ولاتجزع لحادثة الليالى

فما لحوادث الدنيا بقاء..

أما أن تشق الجيوب .. أما أن تلطم الخدود ..

فهذا يأس .. ونعوذ بالله منه :

"انه لاييأس من روح الله إلا القوم الكافرين "

خـواطـر مسافـر

وانقضت عطلتنا الصيفية كأنها حلم جميل .. وهانحن أولاء نودع الوطن الصغير آسفين.

ويمضى القطار الى القاهرة حثيثاً.. يدفع بصدره الزاحف الى أمام ..

والحق أننى قرأت فى هذا القطار قصة الحياة نفسها : حياتى وحياتك .. وحياة الناس أجمعين.

ان الأشجار الهاربة الى الأرض من ورائه تمثل أيامنا الذاهبات .. وليست النخلات الآتية سوى أيامنا المقبلة .. وبعد قليل سنلتقى بها .. ثم تصبح بعدئذ ماضيا..

هاهو ذا القطار قد وقف ليستقبل راكبين آخرين .. ويلفظ مثلهم على الأفريز .. تماما كما يستقبل ركب الحياة كل حين مواليد جددا.. ثم يخلف من ورائه أشلاء الضحايا !

وما هؤلاء الضعاف الذين فاتهم القطار وعجزوا عن الركوب إلا الأطفال : لم يكد يستقبلهم المهد حق تلقفتهم يد ملك الموت .. فلم يكتب لهم الركوب فى قطار الحياة !

انظر معى ياقارئى :

هؤلاء هم المسافرون يتدافعون بالأقدام والمناكب .. فأحدهم يضرب غيره بكتفه .. ثم يقتعد مقعده بالقوة ..

وآخر يحلف كاذبا أمام المحصل أن تذكرته قد فقدت منه .. ولم يسع

المحصل إلا أن يتركه على قارعة الطريق.

إنه مسرح صغير .. تمثل على خشبته رواية الحياة بما فيها من صراع وخداع !

قلت لنفسي :

ماذا كان يحدث لو لم يكن القطار محصل يراقب المسافرين ؟!

لسوف يختلط الحابل بالنابل .. ثم يتحول القطار الى محيط يأكل القوى فيه الضعيف !

كذلك ..

لوترك الله الناس بلا رسالة ولارسول .

أيـــن السعـــادة؟

الى الذين يحسبون السعادة فى المال أو الشهرة .

صاحب الفدادين الخمسة حزين .. لأن غيره يمتلك عشراً !

ومالك العشرة حزين أيضاً .. لأن غيره يمتلك عشرين !

العروس الزاهية تملأ رأس كل شاب .. وعندما يراها بعينه. ويلمسها بيده .. أتراه اقتنع بغنيمته فأصبح سعيداً ؟ كلا ..

ان أمله فى العروس قد تحول ... ليتركز من جديد فى ولد يكون امتداد حياته !

وعندما يرزقه الله ولدا .. يظل حائرا قلقا .. حتى يراه ضابطاً أو طبيباً .. ثم يأتيه الموت فى منتصف الطريق .. دون أن يتحقق أمله الغالى !!

السعادة اذن هى ألا تفكر فيها ..

أن تدثر نفسك برداء القناعة .. ولا تنظر أبداً إلى من هو أعلى منك مالا أوجاها .

وحينئذ .. ستحس بأنك لاشك سعيد. فى هذه الدنيا .

سألت فلاحا يدفع المحراث فى وهج الصيف .. يكابر الأرض صابرا وقد رقدت كل سارية .. سألته .. هل أنت سعيد ؟

قال مبتسما : وكيف لا أكون سعيداً .. وأنا أمتلك فدانا وغيرى يمتلك قيراطاً ..

منحنى الله عينين .. بينما منح غيرى عينا واحدة !

امرأتى دميمة .. ولكنها شريفة !

رزقنى الله منها ولداً واحدا .. وهو نعمة كبرى بجانب رجل لم يرزق حتى أنثى !

ومضى الفلاح يدفع محراثه إلى أمام ..

وهتفت من أعماقى :

ان محمدا هذا الفلاح .. أسعد بكثير من تشرشل وعلى أمين ..

بل أسعد من جميع رؤساء الوزراء السابقين واللاحقين ..

وكل أصحاب دور الصحف .. فى الشرق والغرب !!

إنه يؤثر أن يموت شهيداً .. بدل أن يموت مجرماً !

ربما كان هذا الشاب يسبح فى أحلام اليقظة فابتسم .. ابتسم لأنه طمأن نفسه الى أنه سوف ينتصر الآن .. فيقتل رجلا يعول أسرة ..

فاختار القدر أن يموت هو .. لتحيا أسرة كاملة !.

النقمة أيضاً ليست دائما دليل غضب عليه.

قد ينعم الله بالبلوى وان عظمت

ويبتلى الله بعض الناس بالنعم !

ولنا فى التاريخ شاهد :

لقد عاش فرعون على مسرح الحياة سنين عددا .. سعيدا يختال فى مطارف النعيم .. سليما لم يزره المرض أبداً.

ومع هذا ..

فهل نعتبر هذا النعيم وتلك الصحة .. مظهرين يمثلان رضاء القدر عن فرعون ؟

كلا .. !

فهذا النعيم نفسه هو الذى دفعه الى أن يطغى قائلا للناس : **أنا ربكم الأعلى!**

وجاء رجل الى موسى عليه السلام يسأله أن يدعو الله له.

فدعا له موسى ..

ثم التفت الى الرجل فوجد سبعا ينهش لحمه .. فيخر صريعا !

ويندهش موسى فيسأل ربه عن السر فى هذا.

فيخبره الله تعالى بأن هذا الرجل يسألنى عن شئ .. وليس هناك ثمن له إلا حياته !

سبحانك ربى .. !

لقد عاش فرعون .. فكان فى حياته موته ...

ومات هذا الرجل .. فكان فى موته حياته !!

الـــوعـــظـــفـــن !

يقول الامام على كرم الله وجهه : ما أكثر العبر. وأقل الاعتبار. وانك لتجد صدى هذه الحكمة البالغة على لسان الامام الغزالى حين يقول : النصيحة سهلة .. والمشكل قبولها.

وعلى ضوء هذه اللمعة نستطيع أن نلمس خطورة المهمة الملقاه على أكتاف الواعظين.

فهم البلسم الشافى للقلب الجريح. والربان الماهر الذى يستطيع أن ينتشل النفس الوالهة فى خضم الشهوات الى بر الأمان.

ولعمرى .. ماأخطرها من رسالة تلك التى يجب على حاملها أن يقتحم حصن النفس المنيع. ليطهره من ألغام الأباحية. واسرار الالحاد ! والخطوة الأولى للواعظ الناجح : هى أن يترجم المبادئ التى يقررها الى لغة الواقع بالنسبة لنفسه أولاً.

فالألفاظ وحدها لاتسطيع أن توصلنا الى نتيجة فعالة .. مالم يناصرها العمل. ويشد أزرها اليقين.

وحينئذ تتحول الكلمات الملفوظة الى قذائف مدمرة لاتذر من شئ أتت عليه الا جعلته كالرميم. وما خرج من القلب استقر فى القلب.

أما اذا رضى من الغنيمة بالاياب. فاكتفى بخطبة محفوظة يلقيها. أو ديوان أصفر ينقل منه كما يفعل الببغاء .. فهذا وأيم الحق هو الخسران المبين.

أتهدى الأنـــام ولا تهـــدى ∴ ألا ان ذلك لاينفــــــع

فياحجـر الشحذ حتـى متى ؟ تتسن الحديد ولا تقطـــع !

هـذا واعظ منمق اللفظ، طلق العبـارة، ومـع ذلك لانرى لموعظتـه أثر يتـنـاسب مع مايبذله من جهد جهيد .. ذلك لأنه فاقد الحيوية ! وهى قدرته على التأثير فى مستمعيه تـأثيرا .. فلا بد أن يكون لسانه ترجمان وجدانه، ورسول فؤاده، حتى تتغلغل العبرة فى النفس وتمتزج بالروح.

وهـذا يتوقـف الى حد كـبـيـر على مقـدار تجرده من أعـراض الدنيـا وزخـارفـهـا .. وعلـى انتزاع قدمـه من بين أوحـال المادة ليعيش فى جنب الله انسانا .. فـاذا وعظ أثر، واذا سكب رحيق بيانه فـى أذن الزمـان، أنصت الزمان صاغراً !.

فحتم على الواعظ أن يهيىء نفسه قبل أن يتصدى لهذا السفر الطويل .. وأن يحمل فى حقيبة من هذا الدواء الناجح رصيداً مذخوراً .

والحيوية فـى الواعظ أخفى من دبيب السحـر . وأدق من لمحة الحبيب فى حضرة الرقيب !

يستطيع بفضلها أن يمـلأ الجو المحيط به جلالا حقيقا لا أثر للصنعة فـيـه .. وهـى التـى تـعطيـه القـدرة على أن يـسـبـر أغـوار النـفس . فـيشـرح الأحاسيس .

ويتفهم العواطف .. تماما كما يرصد أساطين الفلك أجرام السماء فى أفقها السامى .

ومـا كـان الغـزاة الفـاتحـون أمثـال نـابليـون الا وعـاظا نـابـهـين ، قبل أن يكونوا قودا واثبـين .. لأنهم لم يملكوا زمـام الشعوب الا بعد أن ملكوا زمام

القلوب ! وخير ما أختم به كلمتى قول الحسن لمتكلم يعظ فلم تقع موعظته من قلبه .. ياهذا :

إن بقلبك لشر ... أو بقلبى !

ومن ناحية أخرى ما قيمة المرشد يأمر بمعروف وينهى عن المنكر إذا كانت كل أدوات التوجيه تقريباً لاتعطى من مجهودها قدرا يساوق مركز الدين كرائد للحضارة .. وليس فقط تعاويذ تتلى ؟

على أن تخصيص رجل يرتدى زياً معيناً ليكون رجل الدين لايفيد الدعوة إلى الله كثيراً !

يجب أن يختفى من أذهاننا معنى « رجل الدين » لأن كل من يعمل للدين فهو رجله ولو لم يلبس العمامة !

إن انحصار الدعاية فى فريق معين من شأنه أن يخفف من أقبال الناس على الوعظ .. لأنهم يؤدون عملاً واجباً يأخذرن عليها أجراً .

أما إذا انداحت الدائرة وتخرج الطبيب مزوداً بقدر كاف من الثقافة الدينية .. ومذلك الضابط والمهندس والمدرس .. لكن ذلك أجدى وأبقى ..

وإليك مثلا :

كل إنسان ساقه الحظ إلى المستشفى موة – فإنه يدرك سر مشاعر المريضِ تجاه طبيبه .. وكيف عن ذكرياته معه أثناء المرض والعلاج .. لاتنسى .. وكذلك حديثه الموحى عن « قدرة الله » الذى صنع أجهزة الجسم هكذا .. وعلم الله المحيط بكل هذه الدقائق .. هذا الحديث أو قل هذا الوعظ الغير مباشر أجدى من مجرد كلام لم تصقله التجارب .

والضابط أيضاً مثل أعلى للجندى يحب دائماً أن يحتذى به وينسج على منواله ..

فإذا ما انتهز القائد خلال المعارك مثلا فرصة النصر ليردها إلى أسبابها من الإيمان بالله والتوكل عليه .. ومن وحدة الصف ووحدة الهدف .. مذكرا بمواقف الخالدين من قبله فى الصبر وتحمل التبعان ..

لو حدث هذا لدخل على النفس هذا التوجيه بلا استئذان .. وأثر على السلوك أيضاً تلقائياً لتصبح الفضيلة عاديه كعملية التنفس تماماً !

ويالخصومنا الغربيين :

لقد كانول وعظاً نابهين قبل أن يكونوا قوادا فاتحين ! إنهم يعلمون أن قطعة من السكر لو وضعت فى إناء كبير لم يظهر لها أثر ولاتترك فى الفم طعماً .

أما إذا وضعت فى غرفة اليد فإن مفعولها يبين .. وطعمها يؤثر .. ومن هنا اختاروا أن يضعوا المعانى الكبيرة فى « غرفة » من الالفاظ قليلق على حد ماقال نابليون لجنوده :

تقدموا : فإن أربعين قرناً من الزمان تطل عليكم من وفوق قمم هذه الاهرام !

وكان ما كان مما لست أذكره !

إنها لعظة بالغه أقدمها للواعظين .. ولكل من أتاحت له الظروف أن يخطط للوعظ والإرشاد فى دوله ما

وكلمة أخيرة :

رحم الله أجدادنا وسقاها الله أياماً عاشوها :

لقد كانوا يتعلمون من غيرهم صناعة الورع والخشوع .. ثم خلف من بعدهم خلف كل همهم تعلم صناعة الكلام والسلام !!

لذة الأنتقام

أبى :

وصلنى اليوم خطابك يفيض حبا وعطفا .. وليس هذا بعجيب .. فهذا هو طبعكم دائما ..

وأحب أن أقف طويلاً أمام الفقرة التى تخبرنى بها أنك خطبت لى ابنة عمى وتؤكد لى أنه على استعدا تام لاهدائها إلى بدون قيد أو شرط !

وسررت طبعاً لأننى أصبحت رجلاً يشار اليه بالبنان .. ولكن مع الأسف .. بعد أن حصلت على « الشهادة » فقط !

ورجائى أن يعلم أن الزواج رحلة شاقة .. فلابد له من زاد كثير .. ولا يخفى عليك أنه « عشرة » العمر كله .. فعلى كل راغب فى الزواج أن يختار شريكة حياته .. بنفسه .. وبعد دراسة وافية .. حتى لا يتحطم به السفين فى أول الطريق .. وهيهات أن تنجو وتسترد نشاطها .

لا تواخذنى يا أبى أن كنت قسوت عليك فى الأسلوب .. فهى الصراحة التى ورثتها عنك .. واستقبلتها منك ..

لقد كنت تسيطر على فى أيام دراستى كنت أجد فيها - مهما اشتدت - عطفك الكامن فيها .. وحرصك الحريص على أن تجد ابنك بين أقرانه رجلاً .

كانت يدى لا تبطش الا بأمرك .. وقدمى لا تمشى الا حيثما أردت .. وعيناى تخجل أن تنظر الى شىء لا تحب أن تراه .. ولكن .. هناك شىء خفى .. لا تستطيع أن تتحكم فيه أنت .. حتى أنا .. صاحبه !

ذلك الشيء هو قلبى !

فلنتركه يطير بجناحه فى آفاق العذرية ليتخذ لنفسه خليلاً . ثم .. أنى لا أذكر أبداً أننى فكرت فى ابنة عمى هذه .. ولم أحس لها فى قلبى مكاناً . وأجدنى مضطراً الى أن أقول شيئاً ..

أن أشكو بثى وحزنى اليك بعد الله .. وسوف أصارحك بخلجات النفس .. ونبضات الفؤاد ..

أنت قاسيت فى تعليمى ما قاسيت .. وشربت فى سبيل حياتى مرارة العيش .. وأضنيت شبابك الغض فداء احتفاظى بشبابى .. حتى بدأت يد الشيخوخة تكتب فى فوديك آية الهرم . حتى لتبدو للناظرين شيخاً فانياً .. ولم تزل بعد فى سن الأربعين !

ولم يفكر عمى . « العزيز » أن يمد يد المساعدة الى ابن أخيه الصغير .. كيف لا .. وهو التاجر الثرى ..

كنت يا أبى كالصحراء تشكو الظمأ .. وكان عمى «العزيز» كالبحر يشكو الرى !! ولم يعلم أن الخير هو امتزاج الصحراء بالماء ..

فبينما أنت تسعى لتحصل من عرق الجبين على «مصاريفى» اذ بعمى يجلس فى قصره المنيف .. زهيد العين .. مطمئن الفؤاد !!

انه البخل يا أبى .. ونعوذ بالله منه .

انه الحقد الدفين على رجل يصر على تعليم ولده .. بينما هو لا يحصل على قوت يومه الا لماماً .. من أجل ذلك .. باتت عينه فى غطاء عن أن يمد لك العون .

البـــذل المكـــروه

قالت المرأ الحسناء لزوجها المريض عمران الخارجي :

الحمد لله على أني واياك من أهل الجنه ..

فسرت في جسده المنهوك شحنه من البهجة .. وعلت وجهه تباشير الرضا .. ثم قال لها متعجبا : وكيف ؟

قالت :

لأنك رزقت مثلي فشكرت . ورزقت أنا مثلك فصبرت .. والجنه موعودة للشاكرين والصابرين .

لقد كانت تملك من الفتنه الصارخه قدرا كبيراً .. ومن الجمال الطاغي ما يرشحها لأن تصبح زوج وزير أو أمير ..

ولكنها فضلت نعيم الآخرة .. فداست عرض الحياة المحدود . كأني بها وقد صاحت في وجه الدنيا :

ألا غري غيري أيتها الدنيا .. ما أنت إلا مزرعة وليس فيك حصاد .. فاتركيني في أحضان عمران . ودعيني أصبر في طريقي المستقيم .. الى الآخرة !

وذلك بعينه فرق ما بين الحاضر وأمسنا الدابر ..

لقد أيقن سلفنا الواعي أن الدار الآخرة هي الحيوان فشدوا رحالهم اليها .. فكسبوا الدنيا وفازوا بالآخرة .

بينما نحن قد ظلمنا أنفسنا ..

حصرنا آمالنا في يومنا .. ولم ننظر الى أبعد من أنوفنا .. فماذا

كانت النتيجة ؟

خسرنا الدنيا .. ولا ندرى ما يخبئه لنا الغد المرقوب .

قالت نفسى :

أنظر الى تلك الزهرة الريانه .. واستنشق عطرها الذى يفوح من حولها ..

هل طالبتك بشكرها ؟

وارفع بصرك الى الشمس الصاهدة وقد أرسلت جمانها المذاب .. فاخضر الوادى . وأورق الشجر ..

هل وقفت منك موقف الدائن من المدين ؟

ولتستمع إلى هذا الهزار الشادى على غصنه المياد .. ما أحسبه يطلب منك على غنائه جزاء أو شكوراً . قلت :

يا ويح انسان تصدق على أخيه بمعروف .. ثم أنبرى له من الخلف يمن عليه مفتخراً .. فهذا بعينه هو البذل المكروه .. ومثل صاحبه كمثل رجل نقض غزله من بعد قوة أنكاثا .. حرام يا أخى أن تكون ممن شرح بالمن صدراً ..فرفقا بمسكين أو معنور ألجأته ظروف الحياة الى المسأله الجاء .

يكفيك يا أخى أن تكون يدك العليا .. ويده هى السفلى . فلا تمن عليه اذا .

بل الله يمن عليك أن هداك الى أن تمسح جراح مكلوم .. فسارع الى جنة عرضها السموات والأرض .. فقد سبقتك اليها امرأة عمران الخارجى !! .

مدرسة النحلة

هناك رجل يعيش فى صومعة من ذاته . ينظر الى الحياة نظرته فى
ـرآه .. فلا يرى الا نفسه ..

لا تعنيه سعادة الغير بقدر ما تعنيه سعادته هو . ولا تهزه الا مصيبة
ـزلت به وحده .. أما أخوه الانسان .. أما المجتمع الذى يهبه الحياة ..
ـيس لهما فى نفسه بعض من تقدير .

هذه النفسية التافهه .. هذه الدودة البشرية التى لا تسعى الا لتملأ
بطنها . هى بعينها نفسية الشاعر الذى يعبر عن خلجات نفسه فيقول :

اذا مت ظمآنا فلا نزل القطر !

ولا يمكن أن يكون مواطنا صالحا ذلك الذى لا تعنيه سراء جاره ولا
ضراؤه . ولن يدخل محيط الايمان الا من حطم صرح أنانيته .. فأحب لأخيه
ـ يحب لنفسه . وكره له ما يكرهه لها .

وسعادة الانسان الحقة هى التى تأخذ مجراها الصافى من مشاعر
ـيل الاجتماعى . الذى يجعل سعادته مرتبطة بسعادة الآخرين .

هذا هو ما قصد اليه الشاعر القائل :

فلا نزلت علــى ولا بأرضى ∴ سحائب ليس تنتظم البلادا

ان الانانية بوجهها الدميم كانت ولا تزال معولا يهدم بناء الشعوب .
ـيست هى الصفة الاساسية للدكتاتورية الباغية ؟

ألم تجعل من أبى لهب وأضرابه أحجاراً حاولت اعتياق تقدم الاسلام
فى أيامه الأولى ؟

« وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم »

لقد كانت أبرز صفات الأنصار هى ولا شك .. الايثار : لم يكفيهم أن يشاطرهم المهاجرون أموالهم وعقارهم .. ولكنهم أبو الا أن يؤثروهم على أنفسهم :

ضربوا فى ميدان المروءة أعظم الأمثال . ويزكيهم الله سبحانه فيقول :

« ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » .

قالت نفسى : لقد نسيت النحلة !

فانظر الى تلك النحلة الحائمة : انها تسلك سبل ربها ذللا . تمتص رحيق الزهور :تمرح مزهوة بين المروج .. ثم هى لا تستأثر بما اكتسبته لها وحدها .. بل تقدمه لنا شرابا مختلفا ألوانه فيه شفاء للناس .

قلت : لا يزال الرجل طفلاً يحبو . حتى يتعلم فى مدرسة النحلة .

حيــاة وحيــاة

الكثرة الكاثرة من الناس ينظرون الى الحياة كأنها قصر رفيع الذرا .عالى الشرفات . فتراهم يقفون عل بابه أقزاما لا يملكون للأقدام عليه حولا أو طولاً .

إن دق نفير الجهاد رضوا بأن يكونوا مع الخوالف قاعدين . وان لاح لهم فى الأفق البعيد غيم يحاول أن يعكر صفوهم المستمر وعيشهم المتواضع .. عبسوا قانطين . وتجهموا ساخطين . وتلاشت الثقه بالنفس من بين جنوبهم كما تتلاشى قطعة القطن المندوف بين أصابع القابض عليها .

عجبت لهذا الطراز من الرجال ..

يعيشون دائماً خلف الصفوف .. لم تصقلهم الحوادث . ولم يلجوا أتون العيش المستعر ليخرجوا منه ذهبا خالصا .

وإنك لتسأل أحدهم عن آماله فى دنياه .. ؟ فلا تتعدى لقمة الخبز يحفظ بها ماء الحياة . وخرقة الثياب يستر بها جسده البالى .. أما أن يتدخل لفض مشكله .. وأما أن يلائم بين متخاصمين .. أو يقرب بين متباعدين .. ففى الناس أكفاء غيره يصلحون !

انه قابع فى جحره الضيق . قانع بمركزه الضئيل . راض بأن يغيب فى زحمة الحياة كما تغيب البذرة السحوق فى النخلة الفرعاء .

وما عاش من عاش لنفسه وحدها ..

والقله القيلة من الناس هم اللذين ينظرون اليها من عل :فتراهم بجانبها عمالقة فارهين وهى من تحت أقدامهم عش ضئيل يتصرفون فيه كم

يتشاؤون .

وعلى سواعد هذا الطراز يرفع مجد الوطن يطاول السماء . ومن صميم قلوبهم يكتب التاريخ أمجاد الشعوب .

ولا غرو .. فعندما تهون الحياة فى نظر الشخص لا يبالى بالصعاب . ولا يأبه بحادثات الليالى .. جاعلاً من الآلام المبرحة آمالاً تطمئن اليها النفوس .

لا ينبت فيه شىء من الخوف . ولا يهتدى اليه وهم الحياة . ولا مجرى فيه للدمع ولا ظل للحسرة .[وهوألم ان أفضى به الى الموت أفضى اليه برجل لا يعرف الموت ما هو .. وإن أبقى على الحياة فيه أبقى عليها فى رجل عرفت الحياة من هو][1]. وليس أقوى من رجل سخر بالحياة وكشر لها عن أنيابه فضحكت له على رغم أنفها .. ولم يرتض لنفسه أن يكون ذاتا متصفة بالوجود .. ولكنه جعل منها ما هية للوجود .. فأصبح فى الوجود وجوداً ..

الا ان من الناس من يتضاءلون حتى يصبحوا أحقر من بهيمة الأنعام .. ونحن نظلم أنفسنا اذا دعوناهم رجالاً .. ومنهم الذين يسمون حتى يصلوا الى درجة الملائك فى السموات العلا .. واطلاق لفظ الانسانية عليهم تقصير فى التعبير .

وللزنبار والبازى جميعا ∴ لدى الطيران أجنحة وخفق
ولكن بين ما يصطاد باز ∴ وما يصطاده الزنبار فرق!!

حى على الصلاة

ماذا أنت صانع لو بدت أمامك الحياة كالحة الوجه عبوساً .. ثم

كـدرت بهمومها الملحة جدول قلبك الصافى ؟

ماذا يكون موقفك .. حينما يغدر بك صديق. أو يزور عنك قريب.. وفى أى بئر عميق ستضع عن كاهلك أصار هموم ثقال ؟

بعض الناس يذيب همومه فى كأس من الخمر يعبه مع خلانه عبا .. وبعضهم يحاول أن يذروها فى الهواء مع دخان لفافة تشتعل فى يده..

وأكثرهم يعمد الى صديق يشكو اليه بثه وحزنه .. حتى تقسم آلامه الكبيرة على أثنين.

ولكن اللفافة قد تحترق دون أن تجر معها آلامه الرابضة .. ولسوف تصحو من سكرة الكأس لتفتح عينيك من جديد على همومك .. فتلقاها قابعة .. كما هى !

وصديقك الذى تشكو اليه معذور .. لأنه مثلك يحمل عبئا ثقيلا .. ويود هو الآخر أن يجد له منه مخرجا.

فما عليك أيها المهموم الا أن تهب واقفا .. وتعطى زمامك لطبيب الحيارى .. محمد عليه السلام ..

فسينتزع همومك من جذورها الضاربة فى أعماق قلبك .. وستراها أمامك لاتساوى ملء قبضتك دقيقا!!

فماذا كان يصنع رسولنا عليه السلام .. اذا ما أحس بضيق. أو لاحت فى الأفق بوادر التعب ؟

---

(١) [من حديث للرافعى .]

انه يشير بيده الكريمة قائلاً :

أرحنا بها يابلال !!

أى قم وأذن فى الناس : حى على الصلاة ..

ففى الصلاة طمأنينة النفس. وثلج الصدر. وراحة البال.

فهل استمعنا الى هذا الارشاد من قلب ودود .. ثم طبقناه عملياً ؟

انها ياقارئى أدوية شافية .. وبلا ثمن .. ومع ذلك فنحن عنها فى شغل.

وكان عجبا أن نترك ميدان الروحانيات .. لنطلب فى رحاب المادة شفاء أرواحنا وغذاء جسومنا.

وأصبحت يامسلم اليوم عجيب الأمر. غريب التصرف :

" تؤثر فلسا توعيه على ذكر تعيه .. وتختار قصرا تعليه على بر توليه

وتغلب حب ثوب تشتهية على ثواب تشتريه ..

يواقيت الصلات أعلق بقلبك من مواقيت الصلاة ..

وصحاف الالوان أشهى اليك من صحائف الاديان ..

ودعابة الأقران آنس لك من تلاوة القرآن ..

تأمر بالعرف .. وتنتهك حماه ..

وتحمى عن النكر .. ولا تتحاماه ..

وتزحزح عن الظلم .. ثم تغشاه ..

وتخشى الناس .. والله أحق أن تخشاه .

فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .

الحركة .. بركة !

سرت بالأمس على ضفاف ترعتنا فى القرية .. فوجدت الماء يجرى فى رفق ولين .. مشرق الصفحة .. كأنه وجه السعيد ..

ولاحت لعينى التوتة الفيناء تتمايل تمايل النشوان ..

لكأنما تهمس الى الترعة بسر آلامها ..

والقمر يسبح فى السماء رويداً رويداً .. ومن قبله كانت الشمس تهتز كالمرآه فى كف الأشل .

وسألت نفسى :

ترى .. ماذا يحدث لو وقفت الترعة عن الحركة ..؟ أكنا نبصر روضا نضيرا وعندليبا صداحاً ؟

وما الحكم اذا توقفت الشمس عن الحركة ولبى نداءها القمر ؟!

سوف يموت الحى . وتتعطل الأعمال . وتتبخر الأمال ..

اذا - الحركة بركة كما يقولون !

انها الموتور الكهربائى الذى يدفعنا الى الأمام دفعاً ..

«والحركة فى أقبح صورها أروع من السكون فى أجمل صوره .. لأنه حينئذ يكون من علامات الفناء »

هى بنزين العربة « وكتاب الطالب » وزاوية المهندس . ومبضع الجراح . ولكن .. ما هى الحركة التى أعنى ؟

انها الحركة فى نظام واتحاد وعمل .. فى سبيل « رفعة » الشعب وعزة الاسلام .

النادبون حظوظهم

هذا رجل غاضب من القدر .. موقن انه الشخص المظلوم فى هذه الدنيا .. فبينما ينجب قريبه فى كل عام ولدا .. اذا بالقدر يمسك يده عنه فلا يرزقه .. حتى أنثى !

وآخر حانق لأن سواه ينجب ذكوراً دائماً . بينما لا يرزق هو الا اناثاً .!.

وصاحب الذكور والاناث غاضب ايضا .. غاضب لأن الفقر اللئيم قد قطع عليه سبل العيش .. وها هو ذا يحمل فلذات أكباده .. ثم يرمى بهم فى عرض البحر ليتخلص من عقبة كأداء !!

قالت نفسى :

مغفلون وأيم الحق .. أقصد أولئك اللذين يندبون حظوظهم لأنهم لم يرزقوا أطفالاً .

ألم يسمعوا ما قاله الحسن البصرى حين بشر بولد :

لا مرحبا بمن كنت غنيا أذهلنى . واذا كنت فقيراً أتعبنى . أهتم بفقره بعد وفاتى . حين لا ينالنى به سرور ولا يهمه لى حزن .

وقيل لأعرابى كيف ابنك قال :

" بلاء لا يقاومه الصبر . وفائدة لا يجب بها الشكر " .

ومن يدرى ؟ فلعل هذا الرجل العقيم لو أنجب ولداً .. ربما يغدو سـ ـرقـ أو زانيا يشين العائلة كلها .. وربما غدا مجرما .. وحينئذ قد يؤدى فعله الخاطىء الى فناء الاسرة جميعا .

قلت لنفسى :

ن الله سبحانه قسم الحظوظ تقسيما عادلاً .

فمن الناس من لا يصلح له الا الفقر . ومنهم من لا يصلحه الا الغنى و ـــه تعالى أرحم من أن يخلق عبدا مجردا من امكانيات تضمن له لخوض فى غمار العيش :

أعطى فلانا بنين وبنات .. وحرم آخر من هذا . ورزقه فى مقابله مالا كثيرا ووجاهة بين الناس .

ووهب زيدا جمالا فى الرسم وبسطة فى الجسم . ورزق خالدا بازاء هذ عقلا نافذا وبصيرة كاشفة .

ذاً . لا داعى أبداً لأن يحزن رجل عقيم حرمته الطبيعة هذا القدر من لحيـ ة

ثم .. ان العلماء يقرون أن عبادة العمر كله لا توازى نعمة واحدة مما نعم الله به علينا .. أى أن هذه العبادة كلها لا تصلح لها ثمنا !!

فغضب الانسان لأنه لم يلد .. غضب فى غير محله .. لأنه يطالب حينئذ بسلعة لم يقدم لها مهرها الغالى !!

ويعجبنى ما أنشده أبو العلاء :

أرى ولد الفتى عبئا عليه ∴ لقد سعد الذى أمسى عقيما

فامـــا أن تربيه عـــدوا ∴ وامـــا أن تربيــه يتيـــما

خواطر ليلة الامتحان

لى قريب لى نزل عليه المرض ضيفا .. وهو تاجر قطن موفق أمين .. ومرت الأيام .. وهو على حاله لم يفارقه السقم .

وأشفق عليه أقرباؤه وأحباؤه أن تفوته الفرصة . وله فيها حظ كبير .. وفعلا فاتة القطار فلم يكن له فى هذا الموسم نشاط .. فكانت حسرة وأسى

وعليك أيها القارىء أن تحبس أنفاسك لترصد حكمة المقادير :

ان ثمن القطن قد هبط كثيرا . حتى أن زميله – ممن لم يتاجر قبلا – باع بثلاثين جنيها ما اشتراه بمائة كاملة !!

وبلع صاحبنا ريقه .. وحمد الله الذى لا يحمد على مكروه سواه .

ولست أدرى . من أين يأكل الطبيب اذا عاش كل الناس تغمرهم أثواب العافية ؟

ومن أين يأكل العصفور اليتيم اذا وقف كل فلاح على زرعه حارسا يقظا ؟

ان اللصوص يهجمون على بيتك . فيخربون ويعبثون . ثم يحملون على ظهورهم متاعك الغالى .. وهذا شىء يستحق العزاء

ولكن شيئا واحدا يجب أن يحد من حسرتك .. وهو أن هذه النكبة سبيل إلى حياة كثير من الناس . فسيصلح النجار فساد بابك .. ثم يأخذ

أجره.

وستذهب إلى السوق لتشترى عوض ما فقد منك :

فينتفع بك .. بائع النحاس .. وتاجر القماش .. فتفتح بذلك بيوتا وتسعد نفوساً.

ويتجسم قول القائل :

*** مصائب قوم عند قوم فوائد ***

فيجب أن تكون رجلا جوادا: يحب أن يعطى . كما يحب أن يأخذ . ولتشكر ربك الكريم الذى أعطاك ..

ولتحمد ربك الحكيم الذى أصابك.

وليكن فى ذكرك ساعة مصيبتك أنك أسهمت فى بناء مجتمعك الكبير . وهدفت نحو حياة أجمل من حياتك الرتيبة المملة.

وأؤكد لك ياأخى أن السماء انما تنتقى الرجل المكيث الصبور لتلقى عليه حمله اللائق به ..

فتقبل نصيبك من الحياة ياأخــى ..

وكن عند حسن ظن السماء.

دورس فى الهجرة

هذا الليل الطويل الذى ضرب ألويته السود على الجزيرة العربية .. أماله من آخر ؟ هذه القلوب المتحجرة فى مضاجعها .. ألم يأن لها أن تنبض بالحب .. فتسمع لحون الإيمان السابية ؟

نعم : إن ربك بعباده لرءوف رحيم .

فهذا هو القدر الساهر يمد يده الماضية ليفتح نافذة كوخ صغير .. أطل منها شعاع غامر شتت فلول الظلام .. أطل منها محمد سيد البشر ليمسك بيده الفتية أجراس اليقظة .. فضرب بها مغلق الأجفان . فتفتحت . وانساب صوتها الرنان فذابت له القلوب المتحجرة كأنها قطع الجليد . ينبوعها الجديد ثرارا ينضح بالحب والخير والجمال .

أجل . صحت الجزيرة العربية من نومها الطويل على دقات الحقيقة سافرة .. لترى محمدا بن عبد الله وقد حملها فوق جناحيه وطار بها فى جواء المعرفة ليعلمهم .. فن الحياة !

ولكن المريض بادئ الأمر قد يسب الطبيب . لأن الغفلة قدأخذت عليه طريق الفهم والاصغاء.

وقد لاقى محمد الطبيب من هذا الطراز حشودا هائلة .. وتعرض لأقسى ألوان التعذيب فى سبيل أن يبرأ هذا المريض.

وكانت نتيجة سعيه لا تشجع على الانطلاق فى هذا المضمار . ولو أنه

حبس نفسه فى ذلك السجن الكثيب لأخفق . وانطفأت أمام عينه شعلة الايمان .

ولنا أن نسأل :

ما معنى تلك المعارضة التى حاولت أن تعتاق الرسول ؟ هل تدل على أن الدعوة الاسلامية لم تكن ملائمة للبيئة العربية؟

هل كان الرسول كمن يريد أن يستنبت الذرة فى فصل الشتاء حتى يقبر فى مكانه ولا يرى نور الحياة ؟!

كلا . فقد أعد الله البيئة العربية للاسلام .. عندما فشلت الوثنية ولم تستطع أن تنظم حياة الناس الاجتماعية.

وتعطشت النفوس الحيرى الى بعث جديد . الى دين صادق يتنسمون فيه برد السلوى.

وما كانت تلك المعارضة لتصلح دليلا على عدم التواؤم بين البيئة والدعوة الاسلامية .لأنهم كانوا يصدقون محمدا فى باطنهم وبين ظهرانيهم :

يعرفونه كما يعرفون أبناءهم حتى أنهم كانوا يطربون لسماع القرآن ويستسلمون لأنغامه الحلوة استسلام الحران الى برد النسيم . ولكنه العناد غشى على أبصارهم فاستبدلوا بالأصيل ليلا شديد السواد .. واستحبوا العمى على الهدى فانساقوا فى ضلالهم يعمهون.

إذن :

حق لمحمد المكافح أن يبحث لدعوته عن ميدان جديد . وركن يأوى اليه شديد . حتى تستطيع الشجرة الوليدة أن تؤتى ثمارها .. فقرر الهجرة الى المدينة.يملأه اليقين فى مستقبل كريم.

ووقف القائد الأول على مفترق الطرق ..

أمر صحابه أن يسبقوه الى المدينة . ويبقى هى فى مكة منفردا .. ومن بين يديه ومن خلفه سيوف الأعداء ترصد خطواته .

ولا غرو اذا وقف محمد هذا الموقف ثابتا صابرا.

فأصحاب الدعوات قد تمربهم ساعات بذل النفس فيها ثمن زهيد!

وبعد : فقد وصل الرسول الى المدينة آمنا سالما . فاستقبله بنوها الكرماء كأجمل ما يكون الاستقبال :

صنعوا له من قلوبهم عروشا يجلس فوقها .. ومن سواعدهم الفتية سوارا ترد عنه كيد الكائدين .

ومع هذا الاحتفاء البالغ من أهل المدينة .. ورغم ما لاقاه فى مكة من ألوان العذاب .. فكثيرا ما كان يحن الى مكة وطنه الأول حنين الخليل الى سميره الغائب!

استمع اليه مخاطبا مكة :

* ما أطيبك من بلد وأحبك الى * ولولا أن قومى أخرجونى منك ما سكنت غيرك.

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ∴ ما الحب الا للحبيب الأول

كم من منزل فى الأرض يألفه الفتى ∴ وحنينه أبدا لأول منـــزل

ما أروعها من دروس تلك التى نتعلمها من هجرة الرسول عليه السلام:

لقد كان محمد بطلا عندما آثر أن يبقى فى مكة وحيداً .. حتى يطمئن على رفاقه أولا : فضرب لنا أروع الآمثال فى التضحية وانكار الذات.

وكان محمد عليه السلام أمينا وفيا .. عندما حن الى مكة أم القوى . فعلمنا أن حب الوطن من الايمان .

وكان أبو بكر رجلا .. حينما حافظ على حق جاره .. فأبى أن يستسلم للأهوال حتى تصل القافلة الى الهدف المطلوب.

وأخيرا . وقف الرسول على المدينة فى منبره السامق .. ونادى بأعلى صوته :

هلموا الى ..

[ثم نزع قلوبهم من بين جنوبهم وجعلها فى اناء واحد . ثم صب عليها من حضاوة الاسلام سلافا وق سلسلها .. فأضحت مزيجا واحدا .. وها هو ذا يوزع عليهم قلوبهم ثانيا .. فعاشو جميعا بقلب واحد ! وهذا هو سر انتصار الاسلام.] (١)

---

(١) صورة ادبية رسمها قلم أديب معاصر

سخرية القدر

اليوم الأول لجندى فى الجيش . والحفل الأول لقارئ ناشئ والقضية الأولى لمحام جديد . كل ذلك له فى النفس أثر . لا ينمحى .. بل يبقى بارزا فى خط الزمن.

كذلك يوم الهجرة الكبرى . سيظل راسخا فى أذهاننا نحن المسلمين رسوخا لا يتحول . ذلك بأنه كان حقل الدعوة البكر . وبه انتقل المسلمون الى عهد زاهر مشرق .. عهد العزة بعد الذلة . والقوة بعد الاستسلام

ومضى ركب الدعوة الظافر فى أرجاء الجزيرة مبشرا ونذيرا .

ثم وقف العملاق الاسلامى بعد حين على أبواب مكة التى أذاقت المسلمين من العذاب صنوفا .

وما هى أيام حتى فتحت ذراعيها لابنها البار محمد عليه السلام كما تستقبل الأم الرءوم وحيدها الغائب .

ثم كان النصر .. وكان العفو ..

لم يكن محمد بدعا من الرسل حين هاجر . فقد هاجر من قبله النبيون فرارا بدينهم من الغدر المسلح .. من أناس جبابرة نأصبوهم العداء وسدوا عليهم مسالك الطريق .

هاجر اسرائيل وبنوه الى مصر . ومرت فترة طويلة اضطهد المصريون بعدها بنى اسرائيل . فهاجر موسى وهارون منها . وهاجر عيسى عندما أراد اليهود قتله ظلما . وكان من ضمن تعاليمه لتلامذته :

طوبى للمطرودين من أجل البر . لأن لهم ملكوت السموات . اذاً ..
كانت الهجرة درسا عمليا ألقاه علينا أنبياؤنا الأكرمون .

حتى لا تثنينا وطأة المشاق عن الوصول الى هدفنا المرتقب .

فما على الذين يريدون النور الا أن يخوضوا في معمعان المعركة الطحون الى تطحن ألكاد حين برحاها . ما دام كل ذلك لله وفي الله.

تعال معى أيها القارئ لنقف أمام الغار ساعة .. أمام الخندق الواقى من الغارات الطارئه ..

ها هي ذى العنكبوت قد نسجت على بابه حجابا رقيقا..

ورفت حمامتان في الجو .. ثم هبطتا فوق عتبته وباضتا بيضتين .. وهؤلاء هم عرافوا المشركين وأمراؤهم ينظرون . والخيل المزركشة تهمهم حول منزل الرسول وصاحبه . يالسخرية القدر ! أنها أراد القاهر فوق عباده أن يحبط أعمالهم .. بماذا؟

بعنكبوت وحمامتين !!

فما أقوى الحق .. وما أضعف الباطل !

شــرق .. وغــرب[1]

هل تعرف المسافة بين الشرق والغرب ؟ وهل فى مكنتك أن تدلنى على لفرق بينهما ؟

يجيب توفيق الحكيم قائلاً :

" الفرق بين الشرق وبين غيره من الأمم المتقدمة " هو أن هذه الأمم تعرف عمليات الجمع . فهى تجمع العمل على العمل فالحاصل بالطبع عمل . بينما الشرق لا يعرف غير عمليات الطرح .. فهو يطرح العمل من العمل .. والحاصل بالطبع صفر "!

ولقد أصاب الأستاذ بقوله كبد الحقيقة .. فالغربيون يعلمون جيدا أن الفشل هو الطريق الى النجاح .. ولا يزال الرجل يعمل حتى تصبح أحلامه الجميلة حقائق ملموسة .. فلم يكن عجبا أن تكون قصص النجاح فى الغرب أكثر من قصص الفشل فى الشرق !

الأب الغربى يعطى ابنه فى العيد "شلنا" مثلا . ثم يوصيه ... بل يجبره على أن يشترى اما "مسدس" صغير أو "بمبه"يزعج صفيرها الجيران .. وينشأالطفل .. وقد جرت المترعة العسكرية فى عروقه مجرى الدم .

وأذكر أن :روزفلت"رئيس جمهورية أمريكا السابق ولد مشلولا .. ومع هذا فقد بلغ أوج العظمة .. وكم كان يجوب البلاد فى أيام الحرب ليخطب فى مئات الألوف من الناس . فيملأهم قوة وعزما . ويسوقهم بلسانه الثائر

[1]) اكتشفت إن هذا الموضوع فى كتابى : الدين والحياه يمكن ألقيت عليه هنا لما فى هناك من إضافة

الى معامع القتال أبطالا .

فماذا كان يحدث لو وجد مثل هذا الرجل الكسيح فى مصر مثلا ؟!

سوف تجده رجلا مهلهل الثياب . منبوذ الهئية .. يستجدى أكف الناس أمام مسجد الحسين أو السيدة زينب !!

والطفل فى الشرق يعيش تحت سيطرة أمه .. فاذا أرادت أن تصد ابنها عن عمل خوفته "بالعفريت" تارة و "بالبعبع" أو "أبو رجل مسلوخة" تارة أخرى !

ولكن الأم الغربية تعرف كيف تصنع البطولة فى صدر ولدها .. ممثلة فى أقاصيص تبين ما صنعه عظماء الرجال فى القرون الخوالى .. والغربى اذا أدار النجاح فى عمل أتى اليه من طريقه .. فبائع اللبن فى لندن مثلا .. ماأمله ؟

أمله أن يبيع ما فى إنائه الصغير الآن .. يشترى بثمنه قدرا أكبر منه فى الغد .. وهكذا حتى يصير فى زمن قصير صاحب حانوت ثابت بعد أن كان بائعا متجولا .

ولو سألت واحدا فى بلدك – وليكن فلاحاً – ما هى آماله إنه يريد أن يكون رجلا مرموقا .. ثم يقصر فى أعماله .. متخذا الى هدفه طريقا غير من يكون .. فلا غرو أن انستشرت فى بلادنا قصة "شبيك لبيك" وخاتم سليمان !

يامن تتغنون بروحانية الشرق .. وتعلنون بين الناس :

عاش الشرق مهبط الرسالات والديانات العليا ..

اعلموا جيدا أنه لابد للروح من جسم تعيش فيه .. وأنها وحدها لا يمكن أن تسير بنا الى أهدافنا .. فامزجوا الروح بالمادة .. وسيعود الى شرقنا الحبيب مجده الأول.

راعى الغنم

تقاطرت الشمس فى مشيتها وقد علاها الشحوب .. ثم تاهت فى الأفق البعيد وئيدا .. كأنها تتعلق بفروع الكافور يؤلمها أن تفارق الوجود.

وسرى الريح فى سماء القرية الوادعة رخاء سجسجا . أحببت أن أتأمل الليل فى ثوبه الرهيب .. هذا المارد الجبار ما أحسبه غير جلاد ينكل بسهاده تنكيلا ويسرى مع الريح الهادئ صوت ناى حزين شق اهاب الليل الساكن شقا. كانت نبراته المتقطعة تقطر دمعا . وتملأ القلب الرحيم صبابه وشجوا

وخلت الصوت الرخيم قصبة من مزامير داود عبرت الأجيال الطوال . كى تربط الماضى البعيد بالحاضر الماثل .

كان الفتى إبراهيم يغنى وحيدا . الا من حفنه أغنام تبعثرت من حوله تأكل من خشاش الأرض لماما.

وأيقنت أن وراء النغم العابس سرا :

ان ابراهيم لايرضى بعيشته الرتيبة هذه . ويأمل أن يكون صاحب حانوت فى القاهرة العامرة .

انه لا يملك من حطام الدنيا غير عصاه الصفراء يهش بها على غنمه العرجاء.

يخرج الى الحقول مبكرا . ثم يعود الى حظيرته عندما يأتى المساء . ويرخى على القرية سدوله القاتمة . وله عن كل يوم دراهم معدودة ..

وهى بالنسبة له اكسير الحياة .

ويجلس مولاه المترف على أريكته الذهبية نشوانا .. يكنز فى خزائنه العريضة ما لا ينفق .. ويجرى اليه عرق ابراهيم العزيز .. ذهبا وحريرا .

لك الله يا ابراهيم ! أنت ورفاقك الكادحون الذين كشرت لهم الحياة عن أنيابها " وشطب الفقر بأنامله الغليظة شبابهم النضير .

ولكن الألم الذى انتابنى لم يردنى عن أن أقرر للفتى أن الحياة جهاد وعمل . والذين يذوقون مر الحياة يتشوقون دائما لحلوها . قلت للفتى:

كانت مريم أم المسيح عليه السلام روح الله وكلمته تغزل الكتان وتلتقط السنبل فى إثر الحاصدين .. كانت تفعل ذلك والمهد فى منكبها والوعاء الذى فيه السنبل فى منكبها الآخر.

وكيف تنسى ابراهيم أنك فى وظيفة الأنبياء؟!

فما من نبى الا ورعى الغنم !

أما يكفيك ياأخى أن تكون فى وظيفة الأنبياء ؟!

وتراقصت من حولنا عيدان الذرة الهيفاء بأثمارها اليانعة . وانتشر هسيسها يحكى صوبرة العاشقين يبثون الى الليل الطويل شكواهم .. وتشققت أكمام الزهور طيبة فى هدأه الليل .. ثم عم المكان سكون كأنه الأبد ..

أزعجه ابراهيم بقوله :

كم أنا سعيد .. لاخاب من كان فى وظيفة الأنبياء.

أنانيــــة..وإيثـــار

أن تسابق شخصا لتنال مثله منصبا .. أن تتخذ الوسائل الشريفة لتكون فوق جيرانك علما أومالا .. فذلك ما أفهمه ويفهمه كل الناس.

أما أن تركب رأسك فتتخذ من أشلاء غيرك معراجا تصعد فوقه الى مطلبك .. فما عليك الا أن تحمل متاعك .. ولتتخذ لك فى منطقة الحيوانات مقاما .. فأنت غير جدير بالحياة فى بيئة الانسان !

رددت هذه الجملة آسفاً عندما عاد أخى الصغير وفى عينه دمعة حيرى .

فقد أرسلته ليحضر لى شيئا . فوجد محلنا المعهود مغلقا .. فتخطاه . الى غيره فلقيه كذلك .. فعاد أدراجه حيث وجد الأول مفتوحا .. فدفع لصاحبه ثمن ما أطلب .. فرده البائع غاضبا على الطفل ..

لأنه تخطاه وراح ليشترى من منافسه !!

وتفرس الصغير وجهى عله يجد لهذا اللغز جوابا .. ولكنى سكت .. ولم أشا أن أفتح على نفسه البيضاء بابا من أبواب المكر البشرى.

أرأيت ياقارئى كيف بلغت الأنانية بهذا البائع حدا جعله يغضب .. لماذا ؟

لأن انسانا حاول أن ينفع زمليه فى البيع .. يجاهد مثله فى سبيل رفاهية أطفال زغب الحواصل !

وأدركت مقدار الخطر الفادح لو وكل رزق العبد بأخيه العبد ! اذن لأكلت الحيتان الضارية كل ضعيف لا يملك عن نفسه دفاعا ...

ولا ختفت من مسرح الحياة قيم المرؤة والرحمة والرجولة.

وكيف غاب عن وعى هذا التاجر أن رزق المرء قدر مكتوب لا تزيد الأنانية فيه درهما ؟

تماما كالعمر المحدود .. فلن يستطيع الطبيب النطاسى أن يزيد فيه دقيقة .. وليس فى مكنة القاتل الماهر أن يقتطع من حبله شبرا . أن العصفور الذى يختطف من ثمارك حبة لم يأخذ من رزقك شيئا .. ووعاء الطعام تكسره امرأتك لم يكن لك أبدا أن تتذوقه .. لأن ما فيه يا أخى رزق القطط !!

ورزقك أنت مضمون لا محالة .. ولو كنت أقطع اليدين كسيح القدمين. قالت نفسى :

وإليك صورة من الايثار تعيد ثقتك بالانسانية:

فقد حدث أن هوت الخشبة التى يقف عليها عمال يشتغلون فى بناء منزل .. فسقط الجميع ما عدا اثنين ..

وكان لابد لكى ينجو أحدهما أن يتبرع زمليه بأن يسقط نفسه .. فيحيا الآخر !

فقال أحدهما لزميله :

ياأخى : أنت تعلم أننى أعول أسرة كبيرة .. فأنا أولى بالحياة منك !.

وراقت الفكرة لزميله ..

وبكل بساطة أسقط نفسه .. أو بمعنى آخر نزع حياته من بين جنبيه .. وأعطاها "لزميله" فى الصنعة !! عند ذلك .. أدركت أن فى محيط الحياة أناسا أرفع من الملائكة قدرا .

وآخرين أخس من الحيوانات دركا !

وردة فــي الصحــراء

ما أبعد الفرق بين أمسنا الدابر .. ويومنا الحاضر ! :

ان الثورة التى بثت عناصر التحرير فى هذا الشعب .. لم يفتها أيضا أن تعبر الأرض الميتة لتخرج للناس غابات وجنات ..

أجل : فكما حررت الناس من عبودية الاقطاع . وسطوة الجشعين .. حررت الصحراء من الجرب الجاثم فوقها أياما وليالى !

يؤمن بهذا كل من رأى وسيرى مديرية التحرير .. هذه الصفحة المشرقة .. التى خطبا التاريخ فى كتاب المعجزات فرحا فخورا .فلم يكن يخطر على قلب مصرى أن هذه الرقعة من الأرض ستصبح بعد حين من الدهر شيئا مذكورا .

ولكن الثورة الزاحفة استطاعت أن تخرج هذا الحلم من مقولة المستحيلات الى مقولة المسكنات !!

وحق لقائد الثورة أن يعلنها قوية صريحة :

ان المستحيل كلمة ليست مصرية !!

ماذا حدث ؟

تبدلت الأرض غير الأرض ..

وودعت الصحراء الموحشة سكون الموت .. لتدب فى أوصالها يقظة

الحياة ..

فاذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا ..

الرمال العفراء .. مستها اليد السحرية فاستحالت ثمرا شهيا !

وعواء الوحوش المتخمة بلحوم الضحايا .. أصبح ألحانا آسرة تهز أوتار القلوب هزا .

وباتت كثبان الرمال أكوام فاكهة للآكلين !!

الحياة الرهيبة .. التى حملت فى أنيابها المشرعة أسباب الفناء .. قد أختفت .. لتحتل مكانها حياة من الأنهار الدفاقة .. تحمل الى الناس ماء الحياة !

أرأيت الى هذا الدخان المنبعث هناك ؟

لا تقل انه مواكب الرمال أثارتها الأعاصير النافرة ...

بل قل انه دخان المصانع المبثوثة هناك فى مديرية التحرير !

لتخرج لمصرنا العزيزة غذاءها وكساءها !

لله .. ما أجملك أيتها الوردة الحمراء .. فى لهيب الصحراء !

لم أكن أتصور أبدا أننى سأرى عود برسيم هنا ...

فكيف .. وقد رأيت وردة نضرة .. تباهى بحمرتها الفاقعة قسوة الرمال ؟!

قف معى قارئى العزيز ..

لنتأمل سويا هذه اللوحة الفريدة :

وردة .. فى جوف الصحراء ...

ان فى هذا المنظر العجيب قصة مصر نفسها !:

لقد كانت مصر بالأمس القريب نبتة ضامرة .. فى حقل البشرية الجديب ..

واليوم ..

تصبح فى ظل الثورة الهادفة .. وردة .. فى صحراء الحياة !!

لاتظلموا الدين

هبت طلائع الأصيل . وداعبت بأناملها الرقيقة سنابل القمح الباهتة . فتمايلت شمالا وجنوبا . وانطلق حفيفها الناعم فى الجو .. كأنها تدعو الفلاح الكادح الى أن يعد مناجل الحصاد. فقد اشتعل الرأس شيبا .

مربى فى هذا الحين رجل أعرفه . فرآنى أمزح مع زميلى بعد أن أدينا واجب المذاكرة .

وبالرغم من أن المزاح كان بريئا فقد قال :

ألست فى كلية الوعظ ؟

ان الواعظ أخبرنا أن الدنيا ساعة . فاجعلوها طاعة . وأن عذاب الله شديد .. فنار الدنيا جزء من سبعين جزء بالنسبة الى نار جهنم .

قلت : ألم تعلم أن فى الأخرة جنات تجرى من تحتها الأنهار. فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين :.. حور وولدان وخيرات حسان ؟

فلم تتشاءم الى هذا الحد مع أن رحمة الله سبقت غضبه !

الم تسمع الى قول الشاعر :

انمـا للناس منـــا ∴ حســـن خلـــق ومـــزاح

ولنا مـــا كـــان فيـنا ∴ من فســـاد وصـــــلاح

وروى أن يوحنا وشمعون كانا من الحواريين . وكان يوحنا لا يجلس

مجلسا الا ضحك وأضحك من حوله .

وكان شمعون لا يجلس مجلسا الا بكى وأبكى من حوله . فقال شمعون ليوحنا :

ما أكثر ضحكك ! كأنك فرغت من عملك فقال له يوحنا : ما أكثر بكاءك كأنك يئست من ربك !

فأوحى الله الى المسيح أن أحب السيرتين الى :

سيرة يوصنا .

ان الدين أيها الرجل يسر لا عسر فيه . وهو متين فأوغل

فيه برفق .. وقديما قالوا :

لا تكن حلوا فيأكلك الناس . ولا تكن مرا فيلفظوك.

وكن بين المنزلتين .

والنفس البشرية مطية الى غايتك .. فاذا أنت أنهكتها . وأسرفت فى ضربها خسرت المطلية ولم تبلغ الغاية ..

فخير الأمور الوسط .

وخيل الى أن الرجل الذى تأصلت فيه الرجعية لن يصدقنى الا بحديث صحيح المتن والاستاذ !

فأسمعته حديثا عن النبى عليه السلام :

"يدخل عثمان الجنة ضاحكا. لأنه كا يضحكنى"

وترقرقت فى عينيه الدموع . ولكنها كانت دموع الفرح .. ثم تبسم ضاحكا ..

ونسى أن عذاب الله شديد !

فاتق الله ياأخى ..

ودع هواجس الشيطان الذى أخرج أبويك من الجنة .. واعلم أنه لا بد من حين تشقى فيه حتى تستطيع أن تتذوق طعم السعادة وتشكر الله عليها.

ثم تعال معى ..

وانظر الي هذه الابل .. كيف خلــقت ؟

والى السماء فوقك .. كيـف رفعـــت ؟

والى الأرض تحتك .. كيف سطحـــت ؟

والى الجبال من حولك .. كيف نصبت ؟!

وتأمل .. لمن هذه النعم خلقت !! لك أيها الإنسان

ياأخى : ألم تر الى عود البرسيم القريب منا؟

لقد كان بالأمس زاهيا يباهى بخضرته زرقة السمـاء .. وفـــى ساعـــة من نهار ..

تفتت تحت مطارق الرياح هشيما تذروه الرياح .. هكذا ابن آدم ..

عمر قصير .. ومتاع قليل

وما عند ربك خير وأبقى.

مـــوت .. ومـــوت

ترامت الى من بعيد دقات الطبول تقرع الأسماع قرعا دائبا . وازدحم الجو الفسيح بأغار النساء وأهازيج الشباب . ود فعنى حب الاستطلاع الى مصدر الصوت لأ سرى عن النفس ضائقات الوحدة الخرساء.

واستنبات صديقى ما هذا الذى أسمع وأرى ؟

فقال : انه مأتم ياعزيزى .. مأتم ! ألم تر الى هذا النعش المحمول هناك ؟!

وعقدت الدهشة لسانى . فلم أر فى حياتى فقيدا يشيع بغير البكاء العالى والنحيب المر.

ولكن ظلال الشك بدأت تزحف عن قلبى المشدوه . وعرفت السر . لقد عتاد قلة من الفلاحين اذا ما لمسوا من أحدهم بقية من صلاح أو أثارة من تقوى .. أن يزفوه الى قبره كما يزف العروس الى فتاة أحلامه فرحا . وهم يعتقدون أن موته ما هو الا انتقال إلى الجنة فورا !!

ان الموت فى مذهبهم نداء من الله سبحانه لعبد من عباده .. فمن غير له يلبى نداؤه فى رضا واطمئنان ؟

فمرحبا بالموت مادام هو الذى سيصل بالحبيب الى الحبيب .

عند ذلك تبسمت وملأت البهجة فؤادى الخالى ..

لأن فى قريتى رجالا يستقبلون الموت الكاسر كما تستقبل قاحل الأرض ثجاج المزن فى شوق وأقبال . وهتفت مع أمير المؤمنين عمر :

اللهم أرزقنى ايمانا كايمان العامة ..

غير أن راحة البال هذه لم تدم طويلا . اذ أخرجنى منها صراخ كأنه الرصاص يملأ الفضاء العريض بالشرر !

ان عمـى اسمـاعيل افتقـد الآن ولـدا يناهـز العشـرين . فانظر بربك ما حدث :

ركبته حمية الجاهلية فراح يلطم خده فى جنون . وأسرعت جارته فاستدعت النادبة لتستدر الدموع الغزار . وتعدد مآثر الفقيد وما كان ينظره من مجد مؤثل وعزة شماء .. ثم استحضرت "طاقة " من الزهر المعتم وتفاعل مع الماء وأصبح من العار أن تتخلف امرأة عن صبغ وجهها بهذا النقيع . فهذا فى عرف القوم أبسط مظاهر الوفاء !!

وهكذا تتخطف كلاب ابليس قلوب الغافلين من كل جانب .

وانك لتحاول أن تبين لهم أن هذا البكاء .. وهذا السواد .. ان هو الا اشارة ضخمة الى عدم الرضا بالقضاء الذى هو ركن مهم فى الاسلام .. جعلوا أصابعهم فى آذانهم وصدوا عن الحق صدودا .

يا أمة محمد :

ان المسألة لا تتعدى أن الله ترك لعبد أمانة . ثم شاءت ارادته العليا أن يستردها منه . ولكنه بصياحه البغيض برهن على أنه رجل خائن لا يريد أن يرد الأمانة الى أهلها .

كيف لا ..

وما المال والأهلون الا ودائع

ولا بد يوما أن ترد الودائع

تحت الشجرة

بدأت يد الفجر تمسح النجوم من صفحة السماء . ودقت أجراس الصباح فى فجاج القرية جمعيا.

تفتحت براعم الزهر وعيدان البرسيم.

لمحت قريبا منى رجلا يمشى على الأرض هونا .. تتحدر من فوق رأسه قطرات الماء كما تسيل حبات الدموع من مقلة الباكى.

ولم يكد يرانى حتى ابتدارنى قائلا فى صوت خفيض .. تكاد تخنقه العبرات :
لقد أفسد المطر علينا أرضنا .

قلت مدهوشا :

قتل الانسان .. ما أكفره !

اذا انهمر ماء السماء ليحيى الأرض من بعد موتها .. قال تعطلت المواصلات وفسد الزرع ..

وان هبت عليه أنفاس الصيف قال كثر الذباب وأحترقت الجلود !

ترى .. إذا جعل الله الشتاء سرمداً أو الصيف أبدا ..

أيكون ابن آدم عن ذلك راضياً ؟!

ذلك مالايكون :

ولكنه الانسان :

تقتله الشرقة .. وتؤلمة البقة .. ومع ذلك يعارض رب العباد فيما أراد..

قصة وفاء

مات جارنا . وكان أمس غضا طريا . وصوح غصنه الزاهى وكان قبل
يانا فتيا .

ولم تأخذنى الدهشة أبدا .. لأننى موقن أن الموت نقاد يختار من
اللآلى جيادها . ولذلك هتفت مع الهاتفين :

ان الدموع الغزار فوق هذا الفتى المسجى .. لن تتحول الى نهر يسبح
فيه الى شاطئ الحياة مرة أخرى !

وأزف ميعاد الجنازة . فأبصرت غلاما يحمل ستارا من القطن كغطاء
النعش. فثارت ثائرة بعضهم وصمم على احضار الغطاء المذهب.. لأن ذلك
الستار الحقير لايليق بفتى هو ابن فلان الوجيه !

قالت نفسى :

واغوثاه ! يتأنقون فى الموت كما يتأنقون فى الحياة .. فيالهم من
غافلين : [ان الحياة وان كانت تدللهم فترخى لهم من عنانها .. فان الموت
يرصدهم من برجه العالى ساخراً] .

وبينما نحن سائرون. نحمل فوق أكتافنا ثلاثين سنة فى قطعة من
الخشب اذا برجل يصيح : قفوا أيها الناس لأن "البيه" حضر !! ووقف
الجمع الحاشد بما فيه نعش الفقيد. وشق الوجيه الصفوف مختالا .. ثم
تصدر الجميع. كأننا فى عرس مائج أو فى شأن من شئون الدنيا !

أجل : وقفت الآخرة تنتظر الدنيا لتمسك زمامها !!

يالقومى .. وبالأمثال قومى !!

وهكذا تنعطل حكمة الذهاب إلى القبور .. لأن معنى المساواة فى هذه الخاتمة قد ذاب فى ذلك الموقف الشاذ.

كنت أعتقد أننا جميعا فى رحاب الموت. فما علينا إلا أن نتجاوب مع هذا المعنى ليحصل الاعتبار.

ونتخذ من مشهدنا الرهيب نواة صالحة لحياة جديدة لافرق فيها بين وجيه وقبيح ! .. الا بالتقوى.

وأخيراً عدنا الى القرية .

وهمس صاحبى فى أذنى قائلاً :

لن تأكل اللحم أو أى طعام يمازجه الإدام أربعين يوما !

لأن هذا هو واجب الوفاء نحو الفقيد وعشيرته الأكرمين !

قلت لصاحبى : أربعون يوما كاملة .. يحرم الجهلة فيها طيبات أحلها الله ؟!

ومتى كان التعبير عن الحزن هكذا ؟!

أريد أن أسأل الذين شطب الجهل عقولهم المفكرة :

لماذا اذن لم تحرموا على أنفسكم نعمة الهواء .. فلتربطوا على رئاتكم حتى لاتعب من رحيقه .... عبا.

ولتموتوا عطشا فلا تقربوا الماء بعد يومكم هذا .. فأن تحريم تلك النعم على مذهبكم تعبير بليغ عن حزنكم العميق !!

قالت نفسى : ان محاربة هذه البدع المنتشرة فى الريف .. **لاتقل أهمية** عن مكافحة المخدرات والشيوعية !

تبصرة وذكرى

مستحيل أن أكون من الغافلين !!

هل نسيت هذا الحادث القريب ياأبى ؟

يوم أن هجم وباء "الكوليرا" على الريف الحزين .. وزارنا فى بيتنا .. ووقر فى جسمك النحيل. وأضحيت من الموت قاب قوسين ...... أو أدنى ..

ثم أسرعنا بك الى المستشفى . وهرب عمى "العزيز" وقال : والحق منه برئ : انه يخاف العدوى .. وهو رجل مؤمن .. دستوره :

" ولاتلقوا بأيديكم إلى التهلكة "

ألم يقل القرآن بعدها " وأحسنوا ان الله يحب المحسنين "؟!

فماذا عليه لو أرسل خادمه بثمن الدواء ......"؟!

هلا تذكرت هذا يا أبى ونفضت يدك من ابنة عمى؟

أدعوك أن تدخل معى بيت الرجل الفقير. الذى تكرم وذهب معنا بك الى المستشفى ..

فلن أرضى بغير "خديجة" ابنته بديلا ! وسوف أضرب بمن عداها عرض الحائط .. وفاء للرجولة .. وعرفانا بالجميل.

ليس معنى هذا أنى أفرض عليك رأيى .. انما هو مزيج من الوفاء وحب الانتقام يدفعنى الى هذا المصير ..

وقلبى عن ذلك راض ..

واذا به بعد أن تخرجت .. يحاول أن يفرش لى الطريق زهرا وريحانا ؟

لا .. لا ..

سوف أمضى فى طريقى المملؤ شوكا .. لأنه طريق الرجولة .. لن أنسى موقف عمى : يوم أن تأهبت للسفر وربطت على متاعى ثم وقفت مليا حتى أخذ منك زاد الرحيل .. وأبطأت على ..

أستغفر الله ! بل طلبت منى أن أنتظر يوما أو بعض يوم .. حتى يأتى الفرج ..

ورجع حمارنا الهزيل يجر ذيول الخيبة .. ورجعت وراءه أبكى حفى العاثر .. أشكو ظلم الانسان الى خالق الانسان ..

ويرى عمى هذا المنظر .. ولم يحرك كعهدى به ساكنا ..

وضقت ذرعا بالحياة .. وأصبحت أسيرا بين مخالب اليأس الرهيب ..

ولكنك أرسلت الى من روحك شعاعا أضاء لى الطريق .. واليوم !! بعد أن أحس بالراتب الذى أناله .. والمركز الذى أحتله ..

أجد لعابه يسيل نهراً ؟!

فأفسح لى الطريق ياأبى . ودع قلبى الغرير يشق لنفسه طريقا..

واسمح لى أن أهمس فى أذنك :

وتعال معى الى الأكواخ المتواضعة ..

فان السعادة مقيمة فيها!

خواطر في عيد الفطر

أمــــا قبـــل

فلا أحب لقومى أن يتخذوا من العيد نهاية لمرحلة كنا خلالهامعتقلين .. فالرواية لم تتم فصولا .

لقد مثل رمضان دور الطبيب . وسهر الليالى ذوات العدد . يشرف علينا نحن المرضى . وفى ليلة العيد تسلمنا جمعيا شهادة التطعيم ضد وساوس الشيطان !

والآن .. يريد الطبيب أن يأخذ "أتعابه"وهى باختصار :

أن نكون عند حسن ظنه اخوانا متحابين .. الآن .. وبعد أن خرجنا من بخره المقدس متطهرين .. علينا أن نرتدى لباسنا .. حيث نبدأ من جديد رحلة سعيدة الى مرضاة الله .

لا تعرف جنوحا الى همزات الشياطين ..

كأنى أرى أبليس وهو يحشد أجناده بعد أن انطلقوا من سجنهم الطويل .. وها هو ذا يلقى عليهم أمراه التى نص عليها فى خطاب عرشه :

" قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين "

ترى .. هل نقف مكتوفى الأيدى وابليس اللعين يدق أجراس الجهاد مرة أخرى .. حتى يزحف بجيشه الهجام الى النفوس الرطبة بذكر الله فيحاول أن يطفئ نورها ؟!

وأخيراً ..

وداعا يارمضان .. وداعا ..

وسلام عليك فى ذمة التاريخ ياصديقى العزيز ..

بالأمس كنت جسما طافحا بشرائط الحياة ..

واليوم ..

تصبح جثة هامدة فى لحد الزمان !

وحى الصفصافة

أسكب لجينك أيها القمر .. ياسمير الوحيد وسلوة الحزين . أية روعة تلك التى أضفيتها على الكون ..

ما أجمل شعاعك المرتعش وهو يكتب فى صفحة الطبيعة آية البهجة والجلال .

ويح نفسى .. كم من الناس يغطون فى نومهم كأنهم البعير شد خناقه شدا : لا أحلام ولا آمال ..

ولكننى أبصرتك من خلال السحب المنطلقة .. فحركت فى نفسى ذكريات الماضى .. ذكريات كنت أحسب أنها لن تبعث من مرقدها أبدا .. !

وسبحت فى فيضك الغامر أشكو اليك مرارة النوى .. وأقرأ فى صفحتك الوضاحة سطور العزاء .

ما أجملك أيها الريف !

أحب ظلك الرطيب .. وطيرك المحلق .. وزرعك النضير .. ما أبدعك ياشجرة الصفصاف عندما هزهزت رياح الليل البادرة أهدابك المدلاة .

ماذا وراءك يا أختاه ؟!

انى لأخالك عاشقا برح به الهوى .. فترنح مهتاجا ينادى حبيبه البعيد .. ثم غاب حبيبك يا أختاه ولم يعد ..

فسال دمعك تحت قدميك نهرا !!

يالروعة الكفاح فى ليالى الشتاء الباردة ..!

هذا فلاح يغنى مع الليل .. وعن يمينه تنبعث أنات الساقية فى نغم رتيب رددت أصداءه جنبات الوادى ..

يا الهى .. لم غاب القمر .. ان فراق الأحبه على النفس ثقيل .. !

وعدت الى فراشى .. أعيش مع الماضى .. فمثلت على مسرح الذهن روايات وروايات .

وحينما بدأت أنظم فراشى لأستقبل طلائع النوم .. ارتطمت يدى بأخى الصغير فصاح باكيا .

وذكرنى أخى الطفل .. بطفل آخر .

رزقه الله أما شريفة نظيفة . أضفت عليه من صنوف الرعاية ما كون فيه عناصر الرجولة.

ثم اقتطفتها يد المنون ..

وحاول بعض الناس أن يدخل على قلبه السرور .. كل على قدر ما أوتى من جهد ..

ثم تنكرت للطفل أيامه ونسيه الناس .. فاصطلحت على جسمه العلل وبات فى عداد البؤساء .

نعم ذكرته فدمعت عينى .. ويجب أن تذكره ياقارئى .. وتبكى مثلى .. على الاسلام !!

لقد أحاطه الرعيل الأول بسياج الحب والاخلاص .

فكانوا خير أم لأكرم وليد .

ثم خلف من بعدهم خلف أضاعوه .. وجلسوا فوق أطلاله يبكون !

وحينما أتحدث عن الاسلام .. فانما أتحدث عنه ممثلا فينا نحن .. نحن الذين تركنا ضوءه اللألاء .. ورحنا نطلب فى ظلام المدنية الغربية هداية وأمنا !

بدنا ثروة من المبادئ عزيزة سامية ..

سرقها الغرب اللص من بين أيدينا .. ثم فاخرنا بها ! :

لبس ثوبنا الجديد .. وأدخل فى روعنا أنه ثوبه هو ..

بينما نتمرغ نخن فى ثوبه المهلهل راضين .. ثم لا نستحى !!

نعمة الجوع

أقبل أيها الراعى فقد طال غيابك .. أقبل وهش بعصاك اليقظة على قطيع البشم بطيبات العيش ..

وافتح أبواب حظيرتك المطهرة .. حتى يذوق مرارة الجوع ! فتبعث فى نفسه من جديد آصرة المحبة وواشجة الحنان .. ويعلم علم اليقين فى أى بستان كان يأكل .. لعله يتذكر !

لقد أكلنا من ثمار الحياة حتى بشمنا . وشربنا من أنهارها حتى ثملنا واليوم .. مطلوب منا أن نودع الى حين لذة الشبع .. ونستقبل فى حفاوة ضيفنا الجديد .. أقبل رمضان مرحبا ..

وهات معك عيون أرواحنا التى فقأناها ..

لقدأولينا عيون أجسامنا كل اهتمام .. ولم نفكر لحظة فى أن نخلص أقدامنا من بين براثن المادة حتى تصفو أرواحنا . وتنزاح عنها غشاوة العمى .. فتبصر آلاء الله وآياته فى الكون .

وصدق غاندى الذى قال "أن الصوم لروحى كعينى لجسدى . وما تفعله العينان للدنيا الخارجية .. يفعله الصوم للدنيا الداخلية . "

وأنعم بالجوع دواء شافيا يستل من النفس البشرية عللا . ويملأ حناياها مضاء وذكاء.

وما طالت أعمار الهنود الا لأنهم اتخذوا من الصوم رفيقا فى طريق

حياتهم .. وعرفوا ما للبطنة من مغارم فاجتنبوها .. وما فى الجوع من مغانم فاقتنصوها . وما صار الضب أطول الحيوانات عمرا .. الا لأن غذاءه الأثير كان هبة الريح .. أو خطرات النسيم !

قال رجل من أهل الشام لرجل من أهل المدينة :

عجبت منكم : ان فقهاءكم أظرف من فقهائنا .

وعوامكم أظرف من عوامنا . ومجانيكم أظرف من مجانيننا !

قال أو تدرى من أين ذلك ؟

قلت لا أدرى.

قال من الجوع !!

ألا تدرى أن العود انما صفا صوته لما خلا جوفه ؟!

ونصح رجل ابنه فقال :

أى بنى : قد بلغت تسعين عاما .. ما نغص لى سن ولا انتشر لى عصب . ولا عرفت ذنين أنف . وسيلان عين .. ولا سيلان بول .. ما لذلك علة الا التخفيف من الزاد ..

فان كنت تحب الحياة .. فهذه سبيل الحياة .

وبعد : فيجب على المسلم اليقظ أن ينتقى أفعاله التى يجترحها .. وأقواله التى ينطق بها .. تماما كما ينتقى طعامه التى يتغذى به .

يجب أن تفتح أبواب قلبك على مصاريعها .. وأخرج ما فيه من حقد وحسد ..

اذهب الى كل شخص ساءت بينك وبينه العلاقات .. وعش معه من جديد سمحا كريما ..

فليس رمضان فقط أن تعيش يومك وليس فى معدتك كسرة أو جرعة ..

ولكن .. عليك أيضا أن تقضى يومك وليس فى قلبك حقد أو ضغينة !!

خواطر صائم

ماذا لو أرخت لك الدنيا من حبالها .. فبنيت القصور وشققت الأنهار . وغرست الأشجار ؟!

ماذا لو جلست على كومة من الذهب تنفق منها كيف تشاء مصعرا خدك للناس ؟

لسوف تغادر الحياة على النحو المعهود .. كما يغادرها أفقر شخص في الوجود !

وسوف يفارق النعيم جسمك البض .. كما تفارق الحرارة قرصا من المعدن صافحه النسيم .

ثم ماذا لو بسطت الموائد فى رمضان .. وجمعت فى ساحة بطنك ما لذ وطاب من طعام وشراب ؟! ومن حولك جارك المسكين يعيش على لقمة تحمل حصاة ملح !

لا فرق بينكما أبدا .. فبعد دقائق من غروب الشمس سيشبع كلاكما .. لأن جيد الطعام ورديئه سيان .. كلاهما يشبع الانسان !!

بل ان صاحب اللقمة وقد ذاق مرارة الحرمان .. ستصفو نفسه .. وحينئذ ستعرف ربها .. فتصعد به الى أعلا .. بينما ستهبط بك المعدة الملأى فى غور بعيد !

ان الدهشة لتأخذ على النفس أقطارها .. حينما أشاهد أبناء قريتى

يتغننون فى طعامهم تفننا ما عهدت مثله فى غير هذا الشهر !أى أن الآية قد انعكست تماما :

ففى شهر الروح .. نقبل على المادة !

وفى فترة النقاء من علائق الشهوات .. نخوض فى اللذات مع الخائضين !

وعندماينسلخ الشهر الكريم .. سيذهب الى مولاه غضبان آسفا .. فلم يستطع مبضعه أن يجتث من قلوب العباد جذور الشهوات .

اذن هى الدينا تحتضننا بين ذراعيها .. ورمضان يلهت مناديا .. وهيهات أن نجيب .

ولست أدرى .. علام تسكرنا الدنيا بنعمائها الزائفة؟

فلو كانت شيئا ذا بال .. لكان عندنا بعض العذر فى تقديرنا لها ..

ولكننا مع الأسف .. نحب عجوزا شمطاء .. ونؤثر لمحة من النعيم الفانى .. على حياة الكرامة والخلود !؟

والله لو كانت الدنيا بأجمعها ∴ تبقى علينا ويأتى رزقها رغدا

ما كان من حق حر أن يدل بها ∴ فكيف وهى متاع يضمحل غدا!

يا أيها الذين طعموا اللذيد وشربوا الهنئ .. ولبسوا الحرير .. مرة أخرى .. سوف تغادرون الحياة كما سأغادرها أنا .. وأمثالى من الفقراء ..

مثلما جئناها كلنا على نحو واحد !

هو الموت : مثر عنده مثل مقتر ∴ وصاحب نهج مثل آخر ناكـب

ودرع الفتى فى حكمه درع غادة ∴ وأبيات كسرى من بيوت العناكب

فرجل فى غبراء والخطب فارس ∴ وما زال فى الأهلين أشرف راكب

وماالنعش الا كالسفينة راميا ∴ بغرقاه فى موج الردى المتراكـب

للأعشاب الطفيلية حول الزرع منجل يمحوها ..

وللفرس الجامح زمام يصده ان ركب رأسه طيشا ..

وللقطار المنطلق ربان يضبطه حتى يصل الى هدفه سالما .

كذلك النفس البشرية .. لقد كانت ولم تزل أمارة بالسوء . داعية الى ميادين العصيان

ولكن رحمــة السمــاء أبت أن تــتركها معــولا يهــدم .. بل وضــــعت لها حدودا وقوانين لا تتعداها طوعا أوكــرهـا .. حتــى يتحقــق فيهــا الدســـتور الخالد :

" ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون" .

ومن تلك الحدود الزاجرة صوم رمضان فى كل عام ..

هذا الزمام الذى يقود المرء الى ميدان الفوز دنيا وأخرى ..

والسيف الماضى الذى يخضد شوكة الهوى .. الرمضاء التى تحرق الذنوب حرقاً .

فهل كان فرضه على أمة صلى الله عليه وسلم بدعا ؟

انه فريضة قديمة .. وتجربة حاسمة مرت بالأمم قبلنا ..

" يأأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون "كان الصوم مكتوبا على اليهود والنصارى ..

أما اليهود فقد تركته .. وصامت من السنة كلها يوما واحدا .. هو يوم عاشوراء .

وأما النصارى :

فانهم صاموا رمضان حتى صادفوا حرا شديدا .. فاجتمعت آراء علمائهم على تعيين فصل واحد بين الشتاء والصيف .. فجعلوه فصل الربيع .. وزادوا عليه عشرة أيام كفارة لما صنعوا .

فصار أربعين يوما .

ثم مرض ملكهم فزادوا عشرة أيام أخرى .. فصار رمضان خمسين يوما .

والصوم دواء ناجع لأمراض النفس جسمية وروحية .

ويميزه عن العبادات الأخرى أنه لا يدخله الرياء أبدا .

فالذى يمسك عن الأكل شبعا كالذى يمسك عنه تقربا . وبذلك خلا من السوسة التى تنخر الأعمال .. فاذا بها هياكل لا تحوز لحما ولا تجرى فيها دماء .

ثم ما هو الصوم ؟

رب صائم لم يجن من صومه الا الجوع والعطش ..

ان الصوم فى الحقيقة .. امساك عن أكل أعراض الناس .. والزهد فى كل متاع الدنيا تقربا الى الله .

وبذلك ينمو الانسان الروح ..

ويضمر الانسان الجسم ..

واذا بالنفس البشرية جوهرة باهرة اللألأء تلمع فى أضواء ذاتها .. أو شعلة وهاجة .. كلما اقترب منها فراش ابليس احترق ..

وبقيت هى صافية المجرى . خفاقة الشعاع .

لغة الطيور

تثاءبت شقراء النهار بعد أن كشفت عن وجهها الصبيح غطاء الليل .
ثم تناثرت غدا ئرها البيض .. فأشرقت ليقظتها الحياة .

وجلس بعض شباب القرية الى الموائد متحلقين . يحتسون فى نشوة
كوس الشاى كأنها أوعية المداد ..

وجلست منهم غير بعيد .. أرقب الأرض الكاسية بالحدائق الغن .
والحقول الخضراء .. ولاحت لعينى باسقات الصفصاف وقد تبعثرت فى
مهب الريح جدائلها الناضرات . وتصببت أشعة الشمس من خلالها صبا ..
فأصابت البرسيم الينيع سبرات برد ثقيل .

ولمحت عصفورا فى أعراض الافق مغنيا ... تصطفق أجنحته العفراء
فى عبث مقبول .

وبصرت به فوق الأغصان مرة أخرى . قد اشتبكت مخالبه الصغيرة
مع الفروع .. فبات مقيدا .

وكلما حاول أن يلملم نفسه تعلقت رجله فى فرع قريب .. وصرفت
أبصار الشباب تلقاءه .. فتعالت ضحكاتهم الراعدة مستهزئين . ولكنى علقت
بصرى بالمجاهد الصغير وهو يكابر الفروع صابرا .. وأخيرا انتصر وغدا
حرا .. ثم طفق يغنى للناس لحن الحرية من جديد ..

نعم قد سالت من رجليه قطرات الدماء .. ذلك لأن باب الحريةلا

يتشرف بطرقه الا راحة خضبها الدم القانى ..

انه منظر يكشف للعقل اللماح صورة الحرية فى أسمى معانيها .. انه لعصفور الضعيف يفهم ما قاله حكماء البشر .. يفهم أن الراحة والحرية عدوان .. وهى والمشقة صنوان .. فلو أنه فضل الراحة على الحرية فرضى بأن يظل فى غصنه معلقا .. لوقع فى قبضة الصياد حتما .. وحينئذ .. سيخسر الراحة .. ويخسر الحرية.

لغـــة العيـــون

عينك ياأخى مرآة مجلوة .. ينعكس على صفحتها المشرقة كل ما يعتمل فى ضميرك من خير وشر . وما يهمس به فؤادك من حب وبغض ..

انها لسان ناطق بما يتأثر به وجدانك من فضائل ورذائل .

ثم إننى أبصر فيها نفسى : فمن عبوسها ألمح غضبك منى .. وفى بسمتها الأسرة دليل رضاك عنى.

فالعين كما قيل مرآة العين : فما كان فيه ظهر على صفحتها . وان

وان تــك فى حبيب أو عدو ∴ تخـبرك العيون عن الضمـير

وفضلا عن وظيفتها كقائد يوضح لنا شعاب الحياة .. فان دمعتها الدافئة كثيرا ما تذوب فيهاأشجانك وآلامك .. وكأنها القذى يخرج من الجرح النابح فاذا به حينئذ سليما .

قال بعض الحكماء لرجل اشتد جزعه من بكاء صبى له :

لا تجزع .. فانه أفتح لجرمه "وأصح لبصره"

وضرب تامر بن عبد القيس بيده على عينه فقال :

جامدة شاخصة لا تندى !

ولا غرو !

" فبكاء العين صالح للطبائع . محمود المغبة . اذا وافق الموضع ولم

يجاوز المقدار . ودليل على الرقة والبعد من القسوة . وربما عد من الوفاء .
وهو من أعظم ما تقرب به العابدون . واسترحم به الخائفون "

وقد مدح بالبكاء ناس منهم هيثم البكاء . ويحيى البكاء . ومن طريف
ما وصفت به العين ما أنشده أكثم بن يحيى :

وباسطة بلا نصب جناحا ∴ وتسبق ما يطير ولا تطير

اذا ألقمتها الحجر اطمأنت ∴ وتجزع أن يباشرها الحرير !!

فهل حافظت على جوهرتك اليتيمة يا أخى ؟

هل حاولت أن تجعل منها مصباحا تجوس به خلال الديار لتبصر فى
ضوئه عيوب الناس ؟

أنشر فوق عينك ثوب الحياء يا أخى .. حتى لا تعطل مهمتها التى
خلقت لها .. وهى أن تكون نورا يكشف لك غرائب الكون لتزداد ايمانا فوق
يمان .

وهل أتاك نبأ الربيع بن خيثم ؟

لقد استأذن على ابن مسعود رضى الله عنه . فقابلته جاريته .. ثم
عادت فقالت لابن مسعود :

بالباب رجل أعمى .. فقال لها ليس أعمى !

ولكنه رجل يغض عينيه عما نهاه الله عنه .

خطـــــــرات

يمثلون عمر الانسان بالشمعة : فكل شعاع يخرج منها فهو من حيوتها ولن يعود اليها . هكذا أيامك المعدودة ياأخى .. ففى كل صباح تسقط من شجرة عمرك ورقة يابسه .. ليخرج مكانها برعم جديد .. فهل تستطيع أن تسترد يوما فات من عمرك .. بل ساعة أو ثانية ؟

ما أنت بقادر على أن تحيى الموتى!

وليس معنى ذلك أن يموت يومك لتموت معه أعمالك وأقوالك .. كلا .. بل عود مرة أخرى "شريطا" سجلت عليه خطواتك وخطراتك فى دنيا الناس .

ومن هنا كان من المحتم عليك أن تدع يومك يمرلا ليكون عليك .. بل حاول أن يكون لك ما استطعت ..

هل فكرت فى أن تحسن علاقتك بالله والناس ؟

هل عرفت قيمة الوقت فاحترمته .. لتكون غدا من الذين يأخذون كتابهم بأيمانهم ؟

ان قطار الحياة زاحف يا أخى ..

وغدا يغيب نجم شبابك .. فى نهار الشيخوخة الأبيض ! فنظم وقتك .. فالإسلام دين النظام ..

وحاسب نفسك .. قبل أن تحاسب ..

وقل آخر كل يوم :

ماذا عملت فى يومى ؟

هل أديت زكاة النطق .. فدافعت عن مظلوم ؟

هل أديت زكاة البصر .. فسرحته فى ملكوت الله . فيزداد قلبك يقينا ؟

هل أديت زكاة نجاحك فى الامتحان .. فعاونت فاشلا أوأمسكت لسانك عن السخرية به ؟

اسمع معى قول ابن المقفع فى النفس ومحاسبتها :

" وأما محاسبتها فيحاسبها بما لها . فانه لامال لها إلا أيامها المعدودة . التى ما جعل منها فى الباطل لم يرجع الى الحق .. وما ذهب منها لم يستخلف كما تستخلف النفقة "

فطوبى لانسان عرف الوقت .. واتخذ من فكره اللماح سفينة تقوده الى سعادة الدنيا والفوز فى الآخرة .

لــذة العمــل

كما تغيب النـسـمة العليلة فى ثنايا اعصار فتى . يغيب المرء الكسول فى لجج الحياة الفائرة وعبابها الزخار .

ثم وما قيمة الانسان اذا لم ينفعل بالحياة .. فأخذ وأعطى . ونجح وفشل ؟

ان الحياة هى الحركة .. والحركة من ذاتيات العمل : فالعمل اذا هو الحياة . والركود هو الموت .

ان صائد الغزال لا تعنيه أشلاؤه تحت يده . بقدر ما يعنيه اصابة الهدف . والعدومرة والوثب مرة أخرى ..

وهل العمل الا ذاك؟

والفلاح فى حقله لا يمكنه أن يتذوق طعم الراحة الا اذا غبر قدمه فى الأرض .. وشق بفأسه الملحة صدرها المبسوط .

ان العمل حقا هو الغدة التى أفرزت هذا العالم المنظور .. فلولا تحرك الذرات قبل وجود الانسان خضوعا لقانون الطبيعة ما كان هذا العالم .

ولأمر ما طلب الله من مريم أن تهز اليها يجزع النخلة عندما أنتبذت من أهلها مكانا قصيا ..

" وهزى اليلك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا "

فما كان أيسر على القدرة الغالبة أن تمطرها الجنى الطيب دون أن تبدى حراكا .. وكأن الله سبحانه أراد أن يعلمها أن هناك لذة أخرى تساوق لذة البطن .. هى لذة العمل !

ولا يغرب عن ذهنى يوم أن عزم الرسول صلى الله عليه وسلم على أن يصيب وبعض أصحابه غذاء ..

فقال لهم :

" .... وعلى جمع الحطب "

وما كان أشد حرص الصحابة على أن يظل الرسول بعيدا عن مصادر التعب .. غير أنه حرص بدوره على أن يتذوق طعم العمل !

ولم ينس فى تضاعيف ذلك أن يبين لهم حقيقة النظام فحدد اختصاص كل منهم ثم قال :

" وعلى جمع الحطب " !

ومن قبل هذا نوهت التوراة بقيمة العمل " بعرق جبينك تأكل خبزك " ثم جاء القرآن المجيد مصدقا لها " وقل اعملوا ...."

ولقد فهم الغرب الماكر هذه الحقائق . فاستغلها شكلا وموضوعا .. فترعرعت من حوله جنبات الحياة .

ولكم الشرق الذى اعتمد على خصب أرضه تباطأ .. وضم أجنحته على كسل مقيم .. وهام مع الشعراء فى أودية الخيال .. فأصبح وكر

بضاعته الأمل !

وشتان بين رجل أمله العمل ..

وآخر عمله الأمل !!

مفارقات

سأل المعلم الشيخ تلميذه الفتى :

أتعرف أين يباع الخبز ؟

- يباع فى السوق

-أتعرف أين يباع اللحم ؟

- فى مكان كذا

- وهل تعرف أين تباع الأقشمة والأحذية ؟

تباع فى السرق .

- وهل تعرف مصدر الفضيلة أو الخير ؟

- كلا !!

وتنهد سقراط الحكيم .. ثم قال لتلميذه "أكزينوفون " أليس من العار أن تعرف مصدر الخبز واللحم والأقشمة والأحذية .... وتجهل مصدر الفضيلة .. مع أنها الفارق الوحيد بين الانسان والحيوان ؟!

وخجل التلميذ وجفت فى حلاقمه مسايل الكلمات.

وبنفس هذه السخرية أتوجه بهذه الأسئلة الى شبابنا المسلم :

من منكم يعرف عن أبطال الاسلام الغابرين .. مثلما يعرف عن "أبطال " الشاشة من كواكب ونجوم ؟!

من منكم يعرف عن الثورة المحمدية الهائلة .. وما فى تضاعيفها من بذل وتضحية مثلما يعرف عن الثورة الفرنسية مثلا ؟

لا شك أن الأغلبية الساحقة لتعترف بأنها تعى من أخبار الأزياء وأنباء المسارح أضعاف ما تعى من مبادئ دينها وأهدافه !!

قالت نفسى : ان الصحيفة لتنشر نبأ زواج الممثلة فى صفحتها الأولى .. وبالبنط العريض .. وفى الوقت نفسه تنشر نبأ انشاء معهد دينى فى ذيل عمود!

هذا ان قدر لها أن تذيع مثل هذا النبأ !

أليس عجيبا أن يعد الشخص " أفلام" الموسم واحدا واحدا .. ثم لا يستطيع أن يسرد لنا واجبات الصلاة ؟

قد لا تجد فى المسجد وقت الصلاة الا أفرادا قلائل .... يعدون على الأصابع .. على حين يروعك الزحام الشديد أمام محل لبيع " اللب" !!

قلت لنفسى :

وهذا سبب الأسباب فى ضعف المسلمين وهوانهم على الناس .. فباتوا فى الدرجة الثالثة بعد أن كانوا هم ركاب الدرجة الأولى ! .

ثم دار الزمن دورته ..

واستطاعت عصبة طريدة من أبناء صهيون أن تغزو قلب العروبة ..

فلسطين !

وقدر للحمل الوديع أن يبنى له عشا .. فى منزل الأسد !

نعم .. لقد تشبث مسلم اليوم بالقشرة وترك اللباب .. غره السراب الخادع .. ولو اقترب سوف يلطم خديه .. لأنه لن يجد هناك شيئا .

عجيب لرجل يعرف كيف ينتقى طعامه ليتضخم بدنه .. ثم لا يعرف كيف ينتقى غذاء روحه ليصبح انسانا ..

انما مثله فى تمسكه بالقشرة وترك اللباب .. كمثل رجل شكر آخر لأنه أحضر له جرعة ماء ..

ثم فاته أن يشكر خالق هذا الماء !

عقـــوق

صاحبى كالبعير ! : ان حملت عليه صاح .. وان خففت عنه صاح !

لا أدرى أين رضـاه فـأجلبـه . ولا أين مـا يسـخطه فـأتجنبه .. ان ساعدته بمالى تنمر وقال " هذا لى" ثم نظر الى بذلى كأنه جزية مفروضة نؤديها الى شخصه الكريم !

وان ضنت يدى . وتقلصت عنه دراهمى .. قال :

بخيل ضنين .. ثم يتفضل فيمحو أسمى الضعيف من قائمة الكرماء!

وحرت أنا .. وحار قلبى ..

ولم أدر أين رضاه فأجلبه .. ولا أين ما يسخطه فأتجنبه !

يارب أن الناس لا ينصفونتى ∴ وكيف ولو أنصفتهم ظلمونى !

وان كان لى شئ تصدوا لأخذه ∴ وان جئت أبغى منهمو منعونى

وان نالهم بذلى فلا شكر عندهم ∴ وان أنا لم أبذل لهم شتمونى !

سأمنع قلبى أن يحن اليهمو ∴ وأحجب عنهم ناظرى وجفونى

وبالأمس قابلته وقد رقصت على شفتيه بسمة الأمل .. وأقبلت عليه الدنيا بعد ادبار . ونقلته الحياة من فوق ثديها المر الى نديها الحلو .. فمتص منه شهدا . وارتشف من عروقه عسلا .

كان يركب فى مؤخرة القطار مع المساكين .. فدفعه القدر الى الدرجة

الأولى مع الموثرين ..

كان قزما .. فأصبح عملاقا !

ومع هذا .. فهل ذكر أباه وقد حمل اليه "زكيبة" الخبز على كتفيه فى حر الظهيرة القاسى ؟!

هل تذكر صديقا جميما أسهم فى بناء مستقبله .. بل انتصب له سلما صعد عليه نحو المجد .. ثم لما بلغ القمة تركه وحيدا على الأرض ؟

كلا ..

فلم يعد يذكر شيئا من هذا !

نسى حتى اسمه المخطوط فى شهادة الميلاد .. وأطلق على نفسه علما يناسب وضعه الجديد !

قابلته .. فتوارى فى زحمة الطريق حتى لا يرى انسانا أكل معه عيشا وملحا وهكذا ....

قد يصاحب الفقر شخصا .. ومهما يقسو عليه ويصب فوق رأسه هموم الليالى...

فلن يستطيع أن يمزق غير ثوبه فقط !

أما ضميرة .. الى الأبد .. جوهرة بيضاء لا تغبشها أنامل الفقر الغلاظ ..

بينما قد تقبل الدينا على شخص آخر .. فتكسوه الحرير .. وتسكنه فى قصور تجرى من تحتها الأنهار ...

لكنها فى نفس الوقت .. تمزق ضميره تمزيقا !!

أسطورة الصداقة

وقالوا : لو مدحت فتى كريما ∴ فقلت : وكيف لى بفتى كريم

بلوت ومر بى خمسون حولا ∴ وحسبك بالمجرب من عليم

فلا أحد يعد ليوم خير ∴ ولا أحد يعود على عديم

وتشهد صديقى ثم قال :

عرفت اليوم صدق هذا الشاعر !

فقد هبط على المرض بغير ميعاد . وطالت ساعات الليل حتى خلته شهرا .. لقد أوشك الامتحان وأصبحت منه قاب قوسين..

ولن تنقذنى "روشتة" الطبيب من سطوة السؤال .. وسواء أمام الممتحنين طالب صحيح البدن .. وآخر أضناه المرض !

وتلفت حولى علنى أجد أحد زملائى فأستعين به .. غير أنهم جمعيا قد هربوا .. رغم أننا متفقون :

السنه الدراسية واحدة .. والمنهاج واحد . ولن يكلفهم ذلك شيئا .

ولكنهم هربوا فى جحورهم لا يلون على شئ :

فارمى بطرفك حيث شئـ ـت فلا ترى الابخيلا

وبقيت وحيدا لاسمير ولا صديق .. لأن المرضى والفقراء جميعا لاأصدقاء لهم !

وأسلمنى الزمان الى رجال ∴ كأمثال الذئاب لهم عواء

صديق كلما استغنيت عنهم ∴ وأعداء اذا جهد البـــلاء

اذا ما جئتهم يتد افعونى ∴ كأنى أجرب أعـداه داء !

أقول ولا ألام على مقـال : ∴ على الاخوان كلهم العفاه

وأين صديق مرضت من أجله حين مرض .. وفرحت له حين فرح .. ومشيت معه فى بأساء الحياة وضرائها أذب معه صروف الزمان وأستقبل دونه نبال الأعداء فى صدرى.

وكان لـى مـــؤتسا وكنــت لـــه .. ليست بنا وحشة الى أحد

حتى اذا استرفدت يده يدى .. كنت كمسترفد يد الأسد !

وهكذا وجدت الناس صنفين :

صنف مثل العود الحلو :

مهما صبغته بمختلف الألوان فلن يغير ذلك من طعمه شيئا .. وسيظل دائما حلوا .

والصنف الآخر كما يقولون :

مثل الشجرة المرة .. مهما طليتها بالعسل .. فلن تثمر الامرا !

وسكت صديقى .. ثم تكلمت الحقيقة وحدها :

لقد نجح الطالب المريض .. بل كان فى طليعة الناجحين ..

ورسب المدل بصحته .. بل كان فى عجز الراسبين !!

نجح الأول .. حيث سطع وفاؤه سراجا وهاجا .. أبصرفى ضوئه قنطرة النجاح .. فعبرها .

وتخبط الثانى فى ديجور الغدر .. ولم يدر الى أين المسير .. فهوى !!

صديقى يبحث عن "زوجة"

الحقل يعرفه فلاحا أصيلا .. يعزق الأرض ويرويها كأحد أبناء الطبيعة البارزين .

والمسجد يعرفه عالما عابدا .. يشرح للناس مبادئ دينهم .. ناسخا بشمس علمه ظلال الجهل والقلق .

والمدرسة تعيده طالبا مجدا يتصدر أقرانه دائما .. ولم تره فى الصف الخلفى أبدا .

كل هذه الصفات رشحته لأن يكون "خطيب " ابنة أغنى رجل فى القرية .

ولكن .. انه ابن عم ابراهيم بائع الجرجير .. وهو ربيب الكوخ الصغير فى الزقاق الضيق .. وليس له "أفدنه " يفاخر بها أحدا .. فكيف مع هذا ترشحه الشائعات لها .. ويقبل الرجل الغنى أن يقرن بينه وبين ابنته الجميلة .. سليلة بيت العز والرفاهية ؟!

لابد وأن يكون فى الأمر سر ..

لقد كان بالأمس ربيب الحقل وصديق المسجد وعالم القرية .. فلم ترشحه الشائعات ليكون زوجا لها .

انها " الشهادة " التى حصل عليها اذن !

انه المركز المرموق الذى بدا للناس أنه سيشغله قريبا .. انها الدنيا

الخادعة يتهافت على موائدها الشهية ذباب البشر !!

وهنا لابد له من دراسة المسألة على ضوء ما تلقاه من نظريات خلال دراسته الطويلة :

ان رسالة " الزوجة " فى الحياة أن تكون أما مثالية تعد أطفالها ليكونوا رجال الغد وقادة المستقبل .. أن تكون يدا رحيمه تمسح عن قلب زوجها آلامه وأشجانه .. عندما يعود من عمله ساغبا لا غبا .. هذه الرسالة السامية تلخصها أعرابية وهى توصى ابنتها فى ليلة عرسها :

" أى بنيتى"

انك ذاهبة الى بيت لم تدخليه والى زوج لم تعاشريه فكونى له أرضا يكن لك سماء .. وكونى له فراشا يكن لك عظاء .

وأرجو ألا تقع عينه منك على قبيح .. وأن يشم منك دائما أطيب ريح .

ثم يتحسس صديقيى طريقه باحثا عن بيت يضم عروسا تحلى نفسها بهذه الحلية الجملية .. فيروعه ألا يجد فى القرية كلها أما كهذه الأم وفتاة كتلك الفتاة !

بل دستور كل والدة فى يوم زفاف ابنتها يتكون من هذه المواد :

١- يجب أن تكونى جدارا يحول بين زوجك وبين أخيه وأمه وأبيه !

٢- عليك أن تأخذى "الراتب ساعة قبضه ثم تتصرفى أنت فيه بما ترين أنه المصلحة !

٣- قصقصى طيرك .. لئلا يلوف بغيرك !!

هذه البذور الخبيثة التى تحرض أكثر الأمهات فى هذا العصر على أن تبذرها فى نفس ابنتها عشية زفافها ..

ثم تغذيها البيئة العفنة المشحونة بالحقد والطمع .. فاذا بها مع الأيام أشجار ضاربة الجذور فى قلبها وعقلها ... بحيث لا يستطيع الزوج المسكين أن يتذوق للحياة طعما ! ..

ثم ..

أليس من الجائز جدا أن تفخر عليه زوجه الغنية هذه ..

معتزة بأنها سليلة بيت العز والغنى .. أما هو .. فمهما قفز صاعدا الى أعلى الدرجات .. فهو هو .. ابن " عم ابراهيم " بائع الجرجير !!

وهذا فرض صحيح يؤيده الواقع الملموس .

وتنساب المعانى فى رأسه .. ثم يحاول أن يمشى بخواطره الى حل مستقيم .. فتقفز الى ذهنه صورة رجل فقير يجاورهم فى الحقل .. ان له فتاة صاحبة خلق ودين .. ورثته عن أبيها الرجل الطيب العفيف .. فلماذا لا يتقدم اليه طالبا يدها منه ؟

ان لها ايمانا يملأ قلبها وفاء .. فهى أقدر الفتيات على حفظه شاهدا وغائبا .

ولها عقل حصيف يهذب بتوجيهاته أعمالها وأقوالها .. فلا تعمل الا

طيبًا ولا تنطق الا بالصواب .

ومع كل هذا فهى تملك ثروة من الجمال لا تقدر بخزائن الأموال .. لماذا التردد اذن .. وقد ملكت فى قبضتها مناعم الحياة .. وأتم الله نعمته عليها .. ؟

ثم تشتعل فى أعماقه الرغبة فى أن تكون شريك حياته .. فيهب مناديًا أباه :

تعال يأبى الى الرجل نطلب يد ابنته ..

ودعك يأبى من القصور الشامخة وما حوت ..

دعك من المال وبريقه الخاطف .. وسطوته الكاذبة ..

وتعال معى .. الى هذا الكوخ المتواضع ... فان السعادة تسكن فيه !!

عنايـــة اللـــه

ان منظارك الملتصق بعينيك قد يتحطم فى عنف .. ثم لا تصاب عينك بأذى .

وانك لتنام فى الحقل .. وفى استطاعة حشرة من هوام الأرض أن تسلبك الحياة فى لحظة ..

وربما كنت تمشى تحت بيت يبنى .. وقد يسقط حجر قاصدا رأسك .. ثم يتفاداك كأنما تلقفه عنك لاقف ماهر !

ما الذى حفظ العين فلم تسل فوق خديك ماء ؟!

من الذى قيد الحشرة حتى مرت عليك مر الكرام ؟

من الذى ضرب براحته القوية هذا الحجر الساقط فلم يرتطم برأسك ؟
ان ٣٦٠ ملكا يحرسونك فى حلك وترحالك .. وسواء كنت فى البحر سابحا . أو فى الجو طائرا . أو فى البر سائرا .. فهم على خدمتك يتنافسون ..

أرأيت الى اناء العسل يتهافت عليه الذباب فى اليوم الصائف ؟

أنا .. وأنت هذا الاناء .. وهذا الذباب المتهافت عن يمين وشمال .. انما هو مصائب الحياة وكرباتها .. تود أن تتخطفنا خطفا .

ولكن .. ان عناية الله أبت ألا أن تحيطنا بهذا الحرس الملائكى رحمة ولطفا .

قال صلوات الله وسلامه عليه :

" وكل بالمؤمن ٣٦٠ وملكا يدفعون عنه مالم يقدر عليه ..

من ذلك للبصر سبعة أملاك يذبون عنه كما يذب عن قصعة العسل من الذباب فى اليوم الصائف وما لو بدا لكم لرأيتموه على كل سهل وجبل كلهم باسط يديه فاغرفاه .. وما لو وكل العبد فيه الى نفسه طرفة عين لاختطفته الشياطين .

اذن .. فلا تدل بقوة عضلاتك أيها القوى ..

ولا تفخر بكثرة مالك أيها الغنى .. فان هذا الساعد المفتول .. وذلك المال المتراكم .. لن يدفع عنك من مصائب الحياة شيئا .. انما هى فقط عناية الله تحرسك .. واذا ما تخلت عنك لحظة فلن تبقى على ظهر الأرض يوما !

فاذا ما انتبهت مرة لبئر فلم تسقط فيه ..

واذا قمت مرة من خلف جدار ثم انهار بعد أن غدوت منه على قيد خطوات .. فقل الحمد لله الذى أذهب عنى الأذى وعافانى ..

ورطب لسانك دائما بهذا الدعاء الحبيب الذى أتحفنا به أستاذنا الكبير " على الجندي" :

" اللهم اكلأنى كلاءة الوليد الذى لا يدرى ما يراد به ولا ما يريد " ..

نعمة الفقر !!

صاحبى قلق النفس . مضطرب الفؤاد . ان ماضيه النقى . وأصدقاءه المخلصين .. كل هذا شئ تافه أمام أمنية طالما داعبت خياله آناء الليل وأطراف النهار .

" فزوجه " عقيم لا تنجب . وهو فى أمس الحاجة الى ولد يحمل اسمه .. ويكون امتداد حياته يوم يفارق الحياة .

وعلى شمعة أعصابه الذابلة .. طفق يقرأ قصص الذين أسعدهم الحظ .. فرزقوا بنين بلا حساب !

وأشار عليه خلصاؤه بأن يتزوج من فتاة عينوها له .. وفعلا تزوج .. وحقق الدهر أمنيته فأنجب ولدا .. وزاده الحظ سعادة .. فأعطاه فوق ذلك مالا وعقارا .

وغابت عن سماء حياته سحابة الضيق الى غير عودة .. كيف لا .. وهو اليوم سعيد فى أحضان بيت أنيق .. وامرأتين صالحتين .. وولد حبيب يملأ حنايا الدار مرحا وأنسا .

ومضى الزمان على قدمين من ليل ونهار .. ويمشى معه صاحبنا على قدمين من لحم ودم .. يتمرغ فى نعمة لم يرها قبلا .

وأيقنت أن سوف تحرك هذه النعمة لسانه بالشكر . وقلبه بالحمد .. وكانت دهشتى بالغة عندما لا حظت نفورا بينه وبين الله ..

المسجد على قيد خطوات منه .. ولكنه لا يصلى .. وجيبه يطفح ذهبا .. بيد انه لا يزكى .

لم يعد يرى أو يسمع غير مصلحته هو .. ولا شئ غيرها !!

وازداد كفرانه بنعم الله عليه .. اذ انبرى يذيق زوجه الجديدة صنوف العذاب .. عقابا لها على انجابها له طفلا أضاء أمامه سبل الحياة ؟!!

وهكذا .. يقسو قلب الانسان . وتتحجر مشاعره . عندما يرى النعيم يحيط به من كل جانب ! . وقد يكون ذلك صحيحا ... لأن البؤس والحرمان كثيرا ما يصهران صاحبهما حتى يغدو كله عينا ترى وقلبا يحس .. وهذه احدى نعم الفقر !!

حتى اذا ما ابتسم له الزمان .. ألقى الغنى فوق بصره غشاوة .. تتجمد معها أحاسيسه .. وتموت لها كل عواطف الخير فى قلبه . والتاريخ يحدثنا أن ثعلبة بن حاطب قال يارسول الله :

ادع الله أن يرزقنى مالا .

فقال عليه السلام :

ياثعلبة : قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه . فدعا له ..

فاتخذ ثعلبة غنما فنمت كما ينمى الدود حتى ضاقت بها المدينة .

فنزل واديا فانقطع عن الجمعة والجماعة !!

فسأل عنه عليه الصلاة والسلام :

فقيل له : كثر ماله حتى لا يسعه واد ..

فقال ياويح ثعلبه !

ثم أرسل اليه رسل الصدقة .. فنهرهم ثعلبة وقال :

ما هذه الا جزية .. ارجعا حتى أرى رأيى !!؟

وأخيرا .. أجدنى قد ازددت ايمانا بما قررته الحكمة : من أن بعض الناس لا يصلحه الا الغنى ..

وبعضهم لا يصلحه الا الفقر !!

مشكلة الوأد

فى واد غير ذى زرع . وفى صحراء جهمة الأديم صافية السماء . حيث ترقد مكة أم القرى كالعروس المقنعة . وقبل أن تهب على الجزيرة العربية نسمات النبوة العاطرة .

كان العربى كالفراشة لا يستقر فى مكان : فاذا أقبل الشتاء انكمش مع أهله الى حدود العراق أو الشام حتى يخفف ضغط الصقيع .

فاذا بدت تباشير الصيف . ومست أنفاسه اللاهبة جسده الأسمر .. ساح بهم فوق الجمال فى لجج الرمال جريا وراء العشب والماء .. وهما عمود الحياة اذا عزت الحياة .

وبالرغم من عدم وجود حقوق ملكية مصونة بالنسبة لهذا العشب فقد كان الحصول عليه عزيزا قد تنجم عنه الحرب الضروس كما حدث بين بكر وتغلب . لذلك .. كان فى حاجة ماسة الى ولد يشد أزره اذا صارعته أمواج الأحداث .. فاذا بشر به جعل يوم مولده عيدا يتقبل فيه التهانى ويطعم الطعام .

ومن هنا كانت المعايير الخلقية شديدة الارتباط بفكرة القتال .. فلا عجب أن انحطت قيمة البنت عند أبيها الى أسفل درك !

" واذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم .

يتوارى من القوم من سؤ ما بشر به . أيمسكه على هون أم يدسه فى

التراب "؟

ولكنه فضل أن يدسه فى التراب !!

ومن ثم شاع الوأد عند العرب وذاع .

ونحن نظلم التاريخ اذا اعتبرنا ما سبق هو السبب الوحيد الذى يفسر لنا مشكلة الوأد .

فمن العرب من كان يئد ابنته مخافة الفقر .. ومنهم من كان يئدها اذا جاءت كسحاء أو برصاء ..

ومن طريف ما يروى أن أعرابيا هجر زوجته وجعل يقضى وقته فى بيت جار له .

وفى ليلة سمع زوجته تهدهد ابنتها بهذه الأبيات :

مالأبى حمـــزة لا يأتينا

يظل فى البيت الذى يلينا

غضبان ألا نلـــــد البنينا

تالله ما ذلك فـــى أيدينا

ونحن كالأرض لزارعينا

ننبت ما قد زرعوه فيـــنا

وما كادت تنتهى من أنشودتها حتى اسرع اليها فقبلها وقبل ابنته

وقال : ظلمتكما ورب الكعبة .

وأخيرا وبعد حين من الدهر . أشرقت أنوار النبوة فى آفاق الجزيرة الصاخبة . ووقف محمد صلى الله عليه وسلم فوق آكام مكة وأعلنها صرخة مدوية :

لا وأد بعد اليوم !!

فكانت الصرخة التى أحرقت يابس العشب بين الحق والباطل .. بين الايمان والكفر .. وقيل بعدا للقوم الظالمين .

ظلمــوك يادنيــــا

من الناس فئة ينظرون الى الحياة كأنها رحلة عابسة . أو مسرحية هزلية . فاقدة القيمة عديمة الجدوى.

ولقد تناهوا فى تشويه جمالها . واسترهبوا السذج من الناس وحبسوا أعينهم عن اجتلاء منظرها البهيج .

وأرغموا تلاميذهم على أن يقفوا منها موقف الخصيم من الخصم . والمضروب من الضارب . ثم قاطعوها اقتصاديا كما يفعل الوطن الحر مع أعدائه الغاصبين !

فأكل الخوخ مكروه . ولبس الصوف حرام . وذوق اللحوم ممنوع !

فهذا فى مذهبهم لا يتناسب وعمل الفضيلة .. فهما ضدان لا يجتمعان أبدا !

يحفظون جيدا قوله تعالى :

" وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة "

ولا يكادون يحفظون بقية الآية :

" ولا تنس نصيبك من الدنيا "

وان يقولوا تسمع فى ألفاظهم صلصلة العذاب تنذر بالويل والثبور عباد الله الآمنين .. مرددين أن باب القبر مفتوح على مصراعيه .. وجيوش

الدود الهائلة فاغرة أفواهها تنتظر الصيد الجديد :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب اذ عوى ∴ وصوت انسان فكدت أطير

لقد أيقن هؤلاء الآبقون من واقع الحياة أن الفقر هو القنطرة الفريدة التى تهدينا الى المرفأ السعيد .. فعقدوا معه عقدا وثيقا على أن يكونوا سدنته الأوفياء . وجنده المخلصين . وراحوا يبينون للناس فوائده صائحين :

" جوعوا تصحوا " : ونسوا أو تناسوا أن يقولوا لهم أن المؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف .. والعقل السليم فى الجسم السليم . وخدعوهم فقالوا :

طوبى للفقراء فسوف يدخلون الجنة قبل الأغنياء بأمد طويل !

فأقدم أيها الفقر : لقيت أهلا ونزلت سهلا !

وأخف من بعض الدواء الداء !!

انما مثلهم فى علاجهم هذا كمثل الابن " المدبر " اذ قال لوالده وهو يحاوره :

نريد ياأبى أن نشترى عربة ونوفر أجرة الترام !

ونقتنى قصرا وندخر ثمن السكنى .. ويتمخفض الجبل فلا يلد حتى الفأر !! ولست أدرى ماذا لو نظر المسلم الى الدنيا نظرة الحبيب لحبيبه .. فرآها زنبقة يتفجر منها ينبوع البهاء والصفاء .. ثم شرب من مائها الزلال وخسرها الحلال قطرات تملأ جسمه نضارة . وقلبه شكرا . وعينيه بريقا ..

فالله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده .. ثم قام مع ذلك بواجبه نحو ربه خير قيام . فصلى وصام .

وبذلك يكسب الدنيا والآخرة معا ؟

ألا ما أحسن الدين والدنيا اذا اجتمعا .

لن يستطيع هؤلاء العابسون أن يدخلوا البهجة على قلب أحد لأن فاقد الشئ لا يعطيه .

ولسوف تدوسهم عجلة الواقع المنطلقة وتذرهم من خلقها أشلاء .

ويومئذ سيعلم القانطون أى منقلب ينقلبون .

الأغنياء الفقراء

يطلب الرجل الرشيد مصرعه فى سبيل الله ليولد من جديد فى عالم الخلود .. كذلك الغنى الرشيد : ينفق ماله سرا وعلانية . ليكتب له حياة أخرى .. ولنفسه ذكرا حميدا .

فحياة المال فى أن يأخذ طريقه ليمسح دمعة محروم . وأن يكون للبائسين دثارا يقيهم لفح العيش . وزمهرير الحياة .. وموته فى أن يظل حبيسا يعبد من دون الله !

ألم تر الى النهر ؟

انه يرسل ماءه عبر الحقول مدرارا .. ثم يختفى عن الأنظار .. نعم ذهب المال بشكله فى أخاديد الأرض . ولكنه ترك من ورائه جنات ألفافا . وحدائق غلبا .

ولو أنه ظل جامدا فى مكانه لفقد عذوبته وحلاوته .. وأصبح للديدان والحشرات مرقدا ناعما ..

هكذا الرجل الكريم : والرجل البخيل ..

هذا هو الفرق بين انسان ملك هو المال فأنفقه كيف شاءت ارادته .. وآخر ملكه المال فلم يبق له عليه أى سلطان .. وأصبح على فرط غناه انسانا فقيرا .

مسكين ذلك الذى يجمع فى خزائنه مالا ينفق .. وعلى بعد

خطوات منه جاره الشاكـي .. يئن أنينا فيه نشيج البكاء . وفيه صيحـات الألـم . عجبت له ! كيف يستـمرئ لقمة العيـش ومن حولـه رائحـة الجوع تزكم الأنوف ..

عجيب لمترف يبحث عن معدة أخرى ليملأها طعاما .. بينما يبحث أخوه الفقير عن طعام يملأ به معدته الخاوية !

أجل " عجت حتى كدت لا أتعجب " !

أفيقوا من سباتكم أيها الكانزون . واسمعوا صيحة الحق تجلجل فى العالمين :

" والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله .. فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم . هذا ما كنزتم لأنفسكم .. فذوقوا ما كنتم تكنزون "

ألم يأتكم نبأ أبى بكرو عثمان ؟

لقد كان من اشعاعهما معان رائعة تهدينا الى سواء الصراط .. معان فى الكرم .. تظهرنا على أن العيش أخصب ما يكون فى البذل وأنضر ما يكون فى الايثار ..

معان فى الزهد .. أسفرت عن رجال طلقوا دنيا الفناء .. ثم شدوا رحالهم الى دنيا الخلود باسمين .

أفيقوا ياعباد المال :

فان تمثالا من الحجارة مثقلا بالجواهر .. لا يعد غنيا !!

ضريبة العظمة

لكى تكون تلميذا فى مدرسة العظماء لابد أن يكون التواضع لك ديدنا .

فالله سبحانه لا يحب كل مختال فخور .

والشاعر العربى يصور لنا حقيقة التواضع فينشد :

تواضع تكن كالنجم لاح لناظر

على صفحات الماء وهو رفيع

[ولأتك كالدخان : يعلو بنفسه .. على طبقات الجو وهو وضيع]

والذين يتخذون من الكبر معراجا يرفعهم لا يستمرون عليه طويلا . فما تلبث أن تخرج أمعاء مجدهم على قارعة الطريق . انهم يمثلون فقاعات جوفاء علت سطح الماء .. وسرعان ما تذوب هباء ويبقى الماء أبدا . والتواضع ظاهرة عالية الصياح فى حياة العظماء الغابرين . ولنا فى رسولنا العظيم مثل أعلى .

دخل عليه رجل فأرتعد من هيبته فقال له : هون عليك ! فلست بملك . انما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد !

ولنستمع اليه وهو يقرر الغاء الألقاب تاما :

قال له صحابى مرة :

يارسول الله أنت سيدنا وذو الطول علينا .

فقال له الرسول :

" السيد الله . لا يستهوينكم الشيطان . انى لا أريد أن ترفعونى فوق منزلتى التى أنزلنيها الله تعالى . أنا محمد بن عبد الله .. عبده ورسوله "

هذا هو منطق أستاذ البشرية كلها .. لم يقبل أن يكون ملكا تخضع له الحياة . وتصيح بعظمته جماهير الناس .

ولقد سار على نهجه القويم كل راغب فى النجاح . فركبوا جميعا متن التواضع .. فوصلوا الى حيث تكون العظمة متسلقين أسوارها العالية . سأل شخص غاندى لماذا تركب فى الدرجة الثالثة ؟

قال : لأنى لا أجد درجة رابعة !

ومر " ابراهام لنكولن " رئيس الجمهورية الأمريكية على رجل فقير . فحياه الرجل بحرارة . فرد لنكولن التحية بمثلها ..

فسئل عن سر حفاوته برجل عادى كهذا ..

فقال لسائله : تريد أن أكون أقل تأدبا منه ؟!

وهذا رجل يمشى فى الأرض مرحا . يصعر خده للناس. لأنه يملك خمسة أفدنة من الأرض .. لا من *السماء !*

وأخر يختال كأنه الطاووس يخطف الأبصار خطفا . ولاتستطيع أن

تكلمه الا بعد مفاوضات .. لأن الله أفاء عليه من نعمة ففضله على أخيه درجات.

ثم بدل أن يتخذ من هذه النعمة وسيلة اى التواضع والشكر.. يتخذ منها هو ذريعة الى التكبر والعنف..

واغوثاه لمسلم يجمع فى قلبه ايمانا بالله. وتكبرا على عباد الله !

افتح عينيك جيدا أيها المغرور لتبصر معالم الطريق جيداً.

فلئن كانت حفنة من المال هى التى جعلت منك فرعونا صغيرا .. فاعلم أن رجلا بلا مال .. خير من رجل بلا شرف !

ألاوان الشفقة لتتجلى ناصعة فى مسلك بعض الصالحين بازاء والده:فكان لايأمره أبداً بشئ يحتاج اليه .. ولما سئل عن ذلك قال : انى أخاف لو أمرت ابنى بشئ يعصينى فى ذلك .. فيستوجب النار .. وأنا لا أحرق ابنى فى النار !!

وهذه لعمرى نزعة سامية لرجل كريم .. تسجل المدى البعيد الذى يجب أن يكون عليه **الأقربون** .. حتى تظل رابطة القرابة عزيزة غالية.

ولاشك أن الرجل الذى لايحب أقرباءه ولايتمنى الخير لهم .. لايمكن أبداً أن يكن الحب لغيرهم من الناس !

قال صاحبى :

قد لاتغضب أنت اذا أساء اليك عدو .. لأن هذا منطق العداوة .. وما كنت تنتظر من عدوك غير هذا ..

ولكن الحزن سيملأ أنحاء نفسك اذا شتمك قريب أو حبيب .. لأن القذيفة أتت اليك من منطقة الأمان.. ورميت بالحجارة من زاوية كنت تأمل أن تقذف منها بالورد والريحان !

واذا كانت الصدقة على القريب مضاعفة الأجر.. لأنها صدقة وصلة فمن العدل أيضاً أن تكون سيئته مضاعفة الوزر.

وشتان بين قاتل عدوه .. وقاتل أبيه !

فالجريمة الأولى قتل فقط .. أما الثانية فقتل .. وعقوق. ويظهر ذلك فى

مانلمسه في معاملات الأصدقاء والأقرباء ...

حيث يعاتب بعضهم البعض .. على هفوة يسيرة .. ويجعلون من الحبة قبة !

بينما يغفرون أكثر من هذا لأناس لاتربطهم بهم أية صلة.

قلت لصديقى :

ولكنى سأغفر لهم ذنبهم قل أو كثر ..

سأصلهم ان قطعونى .. وأعفو عنهم ان ظلمونى ..

فأنا بهم أشتد .. ومنهم أستمد حياتى وبقائى ..

ولابد أن أدفع الثمن ولو كان غالياً !

وسيظل صوت أبى "هابيل" يقرع أذنى آناء الليل وأطراف النهار :

" كن عبد الله القتيل .. ولاتكن عبد الله القاتل !! "



وفى الحديث :

" اذا رأيتم المؤمن صموتا وقورا .. فادنوا منه فانه يلقن الحكمة "

ورحم الله " الربيع بن خيثم " :

كان اذا أصبح وضع قرطاسا وقلما .. فكان لا يتكلم بشئ الا كتبه وحفظه .

وعندما يأتى المساء .. ينشر صحيفته .. ثم يحاسب نفسه حسابا عسيرا ..

وأنعم بما فعل .. فلن يتقلى فى سعير جهنم الا حصائد ألسنتهم . ألا إن رمية اللسان - كما يقول الثورى - لأدق اصابة من رمية السهم .. لأن رمية الأولى لا تخطئ مطلقا .. بينما قد تحيد رمية السهم فلا تصيب الهدف.

اننى أعشق الصمت وكل شئ جلله الصمت !

أحب القبور فى صمتها الرهيب .. وسلامها الدائم .

وهل كان الكلام وحده هو الوسيلة الى اظهار ما يدور فى نفس الانسان ؟

كلا ! فكم فعلت العيون الخرساء فعل السهم خرت لضربته جسوم الشهداء !

وقد يلهم النهر الوديع ملاحم لا يوحى بها ضجيج المدينة وعجيجها !

ألم تر الى القمر ؟

يجب أن يتعلم الثرثارون من البشر بلاغة الصمت على يديه !! انه يمشى فى مداره ساكنا صامتا .. وهو بعينه الذى يهيج سكينة البحار مدا وجزرا !!

ياقارئى العزيز :

استمع الى قول صحابى جليل :

اذا رأيت قساوة فى قلبك .. ووهنا فى بدنك .. وحرمانا فى رزقك .. فاعلم أنك قد تكلمت بمالا يعنيك .

قد تسبق العرجاء

فى مناظرة بجامعة فؤاد :

" هل أدت الجامعة رسالتها "

وقف طالب معارض يقرر وجهة نظره . فأخطأ فى الاعراب كثيرا . فوجد نفسه أمام عاصفة من الصغير وألفاظ السخرية من جانب الأغلبية الموافقة فقال :

ان هذا الخطأ دليل ساطع على أن الجامعة لم تؤد رسالتها !

قال صاحبى : سمعت جدتى ذات يوم تمدح جارتنا المرأة السوداء . ثم انها تفضلها من حيث النظافة عن غيرها ممن أوتيت من البياض حظا. فسألتها عن السر ..

فكان الجواب : أن المرأة السوداء كلما نظرت الى يدها السمراء أوسعتها تطهيرا وتنظيفا .

واما تلك البيضاء .. فانها فى الغالب تعتمد على بياض بشرتها فتهملها . وتكون النتيجة أن المسمراء خليقة بالثناء!

وذكرنى هذا بحليمه السعدية . يوم أن سبقتها سائر المرضعات الى مكة . ورجعت كل واحدة منهن بطفل من أولاد الأغنياء .

وتركن محمدا الفقير للأقدار التى تكتب مصائر الأمور .

ولكن حليمة المؤمنة .. حليمة التى اخترقت نظرتها الثاقبة حجب المجهول .

مشت وحدها باسمة راضية تتهادى بها الدابة العجفاء فى مناكب الصحراء .. ترقبها السماء . وتبارك خطوها .. وظفرت مرضعة الرسول بما كانت تمنى به نفسها . ثم عادت .. بمن ؟ بطفل يتيم .. فقد رحمة الخلق .. والأب .. ولكنه لم يفقد رحمة الله .

وسل التاريخ يجبك عن حليمة السعدية . وما أفاء الله عليها من الرفاهية والسعادة ..

نعم ..

حق لها أن تفوق سائر المرضعات نعيما .. كما فاقتهم قبل ذلك ايمانا وتسليما ..

ان فى ذلك لعبرة لطالب ينجح كل عام ..

ثم يباهى بنجاحه طالبا آخر لم يحالفه التوفيق مثله ..

وتاجر ثرى يشمخ بأنفه أمام بائع متجول ..

أيها الطالب .. رفقا بأخيك الانسان .

أيها الغنى .. لا ترفع أنفك الى السماء ..

فقد تسبق العرجاء !!

الروح المعنوية

من القوم تسبح بهم العير فى لفح الهجير .. كأنهم النجوم فى حبك الأرض ؟

انهم العرب المسلمون بقيادة محمد أمير الأنبياء.

جماعة عزمهم سيار

الى الوغى تهافتوا وطاروا

جماعة ليس لهم ديار

الا ظهور الخيل والغبار

تحركت كتائب الايمان تقصد بدرا . تدفعهم حرارة اليقين وتسوقهم الى لقاء العدوعقيدة راسخة .

لا يعنيهم قتلوا أم قتلوا . فالنصر حليفهم على كل تقدير . فاما شهادة .. واما سيادة .

ولما أحس أبو سيفان بدنو الخطر استنجد برجاله .. فجاءه قومه يهرعون اليه عاقدين العزم على سحق محمد والذين آمنوا معه .

ومرت ساعات ..

وبالرغم من تفوق المشركين عدة وعددا .. فقد كنت ترى وجوههم فى هلع .. نفوس حائرة .. تظن أن يفعل بها فاقرة .. بينما وجوه المسلمين

ضاحكة مستبشرة تغمرها وضاءة الايمان .

انها الروح المعنوية "بنزين " الآلات البشرية المقاتلة . يقول "نابليون" :

«ان نسبة القوة المعنوية الى الكثرة العددية كنسبة ثلاثة الى واحد .

وسئل الامام على رضى الله عنه :

بم كنت تنال النصر من عدوك ؟

فقال : كنت أعتقد أنى سأغلبه .. وهو يعتقد أنى سأغلبه .. فكنت أنا ونفسه عليه . ما أبعد الفرق بين أناس يجاهدون فى سبيل الله . وآخرين يقاتلون فى سبيل أصنام لا تسمع نداء ولا تعقل أمرا .

ويل للباطل يدمغه الحق ..

والأحلام تحطمها الحقائق ..

وفلول الظلام تسحقها مشاعل الاسلام ..

لقد ارتفع صوت الرسول صلى الله عليه وسلم نذيرا مدمدها :

"شاهت الوجوه"

فالتحمت الجيوش .. واختصمت السيوف . وتساقطت حبات الدقائق من عقد الزمن ..

ثم أعلنت النتيجة : فكان النصر للمسلمين !

وهتف الطير فوق منبره الأخضر :

تبخترى ياحجة الحق اتضاحا .

وتضاءلى ياشبهة الشرك افتضاحا .

أمـــــة واحـــــة

ان اليد الواحدة لا تقدر على التصفيق .. والغصن الباسق لا يهز المشاعر الا اذا طافت به الريح ..

والسفينة لا تستطيع المشى على التراب أبدا ..

كذلك الحكومة .. فى حاجة شديدة الى تعاون الجمهور :

لقد نزلت الى الميدان التجارى لتحارب الجشعين ..

فيجب أن نحارب الجشعين ..

وقد كان آباؤنا إذ غلت سلعة وأرادوا رخصها تجنبوها .

فاذا هى أرخص من الملح !

فان قال لك الساهون :

ان فلانا با ع بأكثر من التسعيرة وأخذ البائع والمشترى الى السجن . فما ذنب البائع وقد رضى بهذا الثمن ؟ ثم ما ذنب المشترى المسكين .. فقل لهؤلاء الذين يشفقون على فرد ولا يشفقون على الوطن :

ما ذنب الطبيب اذا قال للمريض لا تأكل اللحم فأكله ثم مات ؟!

ياقوم : ان الجيش قد صنع " آلة الرصف " ولن يستطيع الانطلاق وتحت أقدامه الأشلاء أكداسا .

يجب – على الأقل – أن نقف على "الرصيف"

لنمكنه من اصلاح الطريق.

أسلحة النصر

يتساءل صغار العقول ممن لم يتذوقوا حلاوة الايمان :

ما سر انتصار المسلمين فى القرون الأولى .. ولم كان الفوز الغامر وقفا عليهم فى كل معركة شهدتها الرمال العفراء؟

هل كان للرجل منهم أربعة أرجل ويدان عن يمين وشمال . ومن خلف وقدام ؟!

أم كانت أسلحتهم من حديد منزل من السماء ثم انقطع بموت محمد عليه السلام ؟

ولكن الحقيقة تقطع عليهم السبيل قائلة :

"ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين "

فلم يكن للرجل منهم سوى عينين ولسان وشفتين ويدين !

غير أنهم يملكون فى قلوبهم قوة هائلة .. تخط لهم النصر المبين على فئة كثيرة العدد .. تحسبهم جمعيا وقلوبهم شتى .. وما هذه القوة الهائلة الا:

الصبر الجميل عندما تهمهم الخيل فى ساح الوغى . ويرتفع من تحتها التراب سحبا .

والايمان الذى يخلق من الطين بشرا سويا .

واليقين الذى جعل من القلوب المتحجرة نميرا سائغا .

ألا فليعلم الشباب العربى أن الأمانى العذاب فى الظل الظليل .. بين مروج الخضر والنخيل لا تتحقق الا بالصبر .. والايمان .. واليقين .

الحــق والبـاطــل

طالما اهتزت أعواد المنابر هزا .. وانساب من فوقها صوت الخطيب منذار مهددا داعيا على الكفرة الفجرة :

اللهم خرب ديارهم ! اللهم نكس أعلامهم !

وينظر المرء ليرى آثار هذا التخريب .. وهذا التدمير .. ويرتد الطرف كاسفا وهو حسير .. فلم تزل الاختراعات الباهرة تأخذ بالألباب ..

فمن قنبلة "ذرية" الى أخرى " هيدروجينية " الى ثالثه هى " الكويلت " !

ولهذا فقد ظن السطحيون أن قضية الشرق خاسرة .. وأن طريق الحياة قد أغلق فى وجهه الى الأبد .. وبئس ما يقولون .. فلن ينتصر الباطل على الحق أبدا ..

فالحق حق وان تبدلت الأرض ..

والباطل باطل مهما زين للناس ..

والناس جميعا يعرفون ما دار بينهما من المعارك الطاحنة التى انتصر فيها الحق وعلا .

وقد يسأل سائل : ألم ينتصر الباطل فى غزوة أحد ؟

ولكنى لا أسمى هذا انتصارا للباطل .. ولكنه تأخير لنصرة الحق. فمن الذى ينصر الحق اذا ؟

لن ينتصر الحق بصحيفة ما جنة تدفع الشباب الى لقاء الشيطان ..

ولا بركعات تؤديها « تقول فيها رابعة العدوية :

استغفار يحتاج الى استغفار!

أم هل ينتصر الحق لأنه طابق الواقع ؟

وهل يخذل الباطل لأنه خالف الواقع ؟

كـــلا .. كـــلا ..

لن ينتصر الحق الا بالدماء الحمراء .. الدماء الغالية .. التى تسطر فى سجل الخلود أمجاد الشعوب .

وثمن هذا النصر غال جدا ..

فقد يذهب الجيش الى الميدان .. ثم يجاهد فى حرارة .. ثم لا يكون لفوز ؟!

لابد أن نتعلم فن الصبر أولا .. لابد أن يمتحنك الله حتى يعلم الذين صبروا ويعلم الكاذبين ..

وحينئذ ..

يصب عليك شآبيب رحمته .. ويكللك بتاج النصر بعد أن تجود بالثمن .. وفى هذا يقول سبحانه :

" ولو يشاء الله لا نتصر منهم .. ولكن ليبلو بعضكم ببعض "

"ولو يشـــاء الله ما اقتتلـــوا ولكـــن الله يفعـــل ما يريـــــد "

إشراقة الفكر

قبل أن تبزغ شمس الاسلام وتغمر الدنيا أشعتها .. كان لرجال الدين تحكم فى عقول الناس .. حتى أصبح مقررا أن التفكير فى كتب الله كفر بواح . وتمرد غير مقبول .فان لها قداسة تحجبها أسرارها عن أعين المتأملين ..

وكم اتخذوا من هذه القداسة مشجبا علقوا عليه آرابهم فى الدنيا .ثم جاء الاسلام .. فأضاء المصباح لكل ذى عينين .. وضرب بيد فولاذية على تلك الأصفاد القابضة فطارات شعاعا .. حتى وجدنا حرية الفكر أصلا من أصوله البارزة ..

وانطلق الفكر الحبيس يرتفع فى ملكوت الله سباقا .. كأنه براق الانبياء . ولقد حث الله فى قرنه المجيد على التفكير فقال سبحانه :

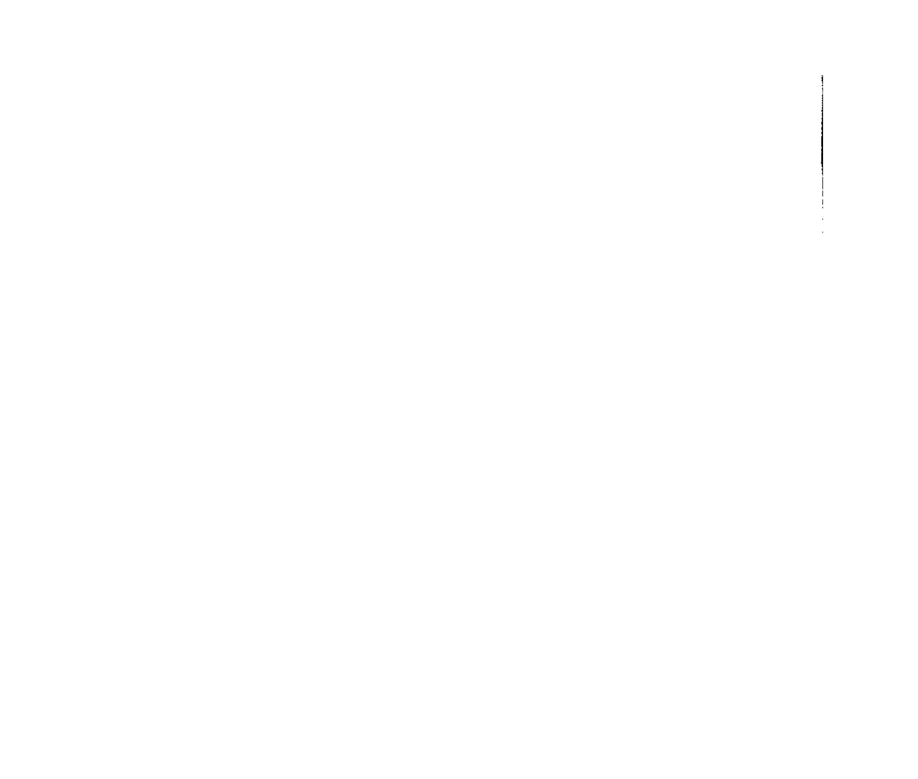
" قل سيروا فى الأرض فانظروا "

" أفــــــلا تتفكـــــــــــرون "

" ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب "

وضرب لنا رسولنا الكريم مثلا :

فقد كان يتعبد فى غار حراء وحيدا فى هذا الموضع الساكن . لأن مع العزلة فراغ القلب . وهى داعية الى التفكير . وبها ينقطع الانسان عن



عقولهم التى هى ميزة الطبيعة الانسانية ..

والحاجز الفرد بينهم وبين البهائم الخرساء .

فتفكر فى نعم الله عليك ياأخى ..

واقرأكتاب الحياة المنشور أمامك كأنك ستمتحن فيه . واضعا كل شئ تراه تحت منظار عقلك النفاذ ..

فلا أريد لك أن تكون حيوانا أعجميا .

أيــن المتهـم ؟

يحاول المجرم دائماً أن يخفى معالم جريمته . فتراه يسبل على آثارها ثوب الحيلة والخداع . هرباً من العقاب .

وقد يفلح المجرم فى ضبط أعصابه .. والسيطرة على حركاته .. حتى يبدو أمام المحقق بريئاً طاهر الذيل .

ولكن العلماء يقفون له بالمرصاد .. يتعقبون آثاره .. مستخدمين الوسائل العلمية فى التمييز بين المذنب والبرئ .. والكشف عن المنابع الأصلية للجريمة .

ويلاحظ أن العلماء فى هذا العصر يعتمدون على التجربة كوسيلة ناجحة فى خدمة العدالة .

بينما كان أجدادنا العرب يعتمدون على الذكاء ودقة الملاحظة .. ومن النادر جداً أن يفلت من بين أيديهم مذنب .. وعلي العكس .. نجد أن الوسائل العلمية الحديثة عرضة للخطأ فى كثير من الأحيان .

وقد كان الصينيون يعتمدون على الطريقة الآتية لمعرفة المجرم من البرئ :

يعطى الشخص كمية من الأرز ليمضغها ثم يبزقها .. فإذا بزقها عد بريئاً . ان تعذر عليه ذلك عد متهماً .. لأن فمه ليس به كمية كبيرة من اللعاب تساعده على البزق .

إذ من المعلوم أن الغدد اللعابية تتوقف عن الفرز فى حالة الخوف وقد

تستخدم بعض العقاقير مثل « السكويولاين » وهئ مادة مخدرة تضعف مقاومة الشخص . وتجعله غير قادر على اخفاء الحقيقة .

وقديما حج رجل مغربى عجوز مع زوجته الشابة الحسناء . فتعرف إلى شاب من الحجاز ثم توطدت الصدقاة بينهما .

ومن طرف خفى عشقت الزوجة الفتى .. ثم اتفقا على الهرب سوياً .. فلجأ الزوج العجوز إلى القضاء .

فأتى بهم القاضى جميعاً وقد أمسك فى كفه قبضة من القمح :

ثم سأل الزوج ماهذا قال :

بر .. وقال للزوجة ماهذا : قالت : بر .. ثم التفت إلى الشاب وسأله ماهذا ؟!

فقال : قمح !

فعرف أنها زوجة الأول . لأنهما اتفقا على تسمية القمح براً وهو الاسم المعهود فى بلادهم !!

وجئ إلى ابن النسوى برجلين قد اتهما بالسرقة .. ولا يدرى أيهما البرئ .. فأقامهما بين يديه ..

وطلب شربة ماء . فلما أجيب إلى مطلبه جعل يشرب ثم أمسك بكوب الماء فألقاه عمداً .. فانكر !

فانزعج أحد الرجلين .. وثبت الآخر

فقال ابن النسوى للمنزعج : أذهب أنت وشأنك .

وقال للذى ثبت : أنت السارق .. فلترد ما أخذت !

فقيل لابن النسوى ماهذا ؟

فأجاب : اللص قوى القلب .. لاينزعج .. وهذا المنزعج برئ .. لأنه لو تحركت فى البيت فأرة لأزعجته .. ومنعته من السرقة !!

مفارقات

في مراكش والجزائر .. في الهند وباكستان .. يموت هناك آباؤنا وأمهاتنا واخواننا ..

في كل ساعة .. بل في كل لحظة .. تصعد أرواح وتهدم بيوت .. ومع ذلك .. فقد تغاضى أحد الكتاب الكبار عن كل هذا ..

بدل أن يسهم بقلمه في مناهضة الاستعمار .. وكشف نواياه الخبيثة.. بدل أن يسكب من قلمه قطرات تواسي الحزين .. وتفتح أبواب الأمل أمام اليائسين ..

بدل أن يمشي في ركاب الثورة المنطلق ليعمل معها على خلق جيل الشباب الفتي القوي .

أقول بدل أن يفعل هذا .. إذ به يحمل عصاه ومظلته في رحلة سعيدة إلى الشاطئ الرطيب ..

ثم رأى بعين خياله أن في هذا الشاطئ وما عليه من نهود بارزة .. وصدور عارية حلا مرضيا لمشكة الزواج التي يعانيها مجتمع انفصالي .. كمجتمعنا !

فلنستمع إلى سلامة موسى يقول في احدى يومياته :

« ونستطيع لذلك أن نجد في عادة الاصطياف حلا جزئياً لأزمة الزواج التي تعد من أمراضنا المتوطنة بسبب مجتمعنا الانفصالي .. هذا المجتمع

الذي نلغيه عند الشاطئ ولن يعرف الشباب جمال فتياتنا وهن كاسيات متبرجات في المدن . وانما يعرف هذا الجمال عند الشواطئ وهن ساذجات قد شعثت الأمواج شعورهن وقد بدت صدورهن في بذخ وتحد .. وماأجملها فتاتنا المصرية حين تخرج من البحر عضلية مندمجة الجسم صافية البشرة . قد لمع الماء جسمها .. تتوامض أشعة الشمس على قطراته.

هذه هي هدية الموسم .. يقدمها شيخ في السبعين .. إلى الشباب المسلم في شرقنا المتحضر .. موطن الديانات ومهبط الرسالات !!

وكأن مقياس المرأة الناجحة هو فقط جسمها المندمج . وشعرها المنفوش ! أما عفتها . وحشمتها وخلقها .. فليس لهذا في عصر التقدم ميزان .. فقد ضاع هذا الفتات الحقير أمام طوفان المدنية الطاغي !

وسلام عليكن أيتها الدرر المكنونة في خدوركن .. المسربلات في ثياب العفة .. لاترين رجلاً ولا يراكن رجل .. سلام عليكن يوم قضى الدهر أن تعشن في بيوت الطهر .. ولم تسعدكن الأيام لتلتقي أجسادكن عاريات على الشاطئ السعيد !

عزاء جميلاً .. فقد فاتكن القطار !

ويح نفسي .. في الوقت الذي نشكو فيه مر الشكوى من خلوة الخطيب بخطيبته .. في السينما أو في الحديقة .. وما يترتب على هذا من فسخ للخطوبات بعد قضاء الشهوات ؟

فى هذا الوقب بالذات يجـأر كـاتبنا منادياً بأن هذه الخلوة لاتجـدى نفعاً .. بل ان الزواج الناجح .. هو مابنى على أساس من التفاهم بين الفتى والفتـاه عاريين مـضطجـعين .. على رمال الشـاطئ الوسـيع .وتحت أشـعة الشمس الدافئة .. أشهدوا أيها العقلاء :

« وكان الإنسان أكثر شئ جدلا »

وأخيراً ..

قد لايهضم كلامى هذا حضرات السادة كتابنا « التقدميون » وسأترك المجال للأستاذ أحمد الصاوى – وهو كاتب عصرى متطور – ليلخص رأى العقلاء في هذه المهزلة:

قال لافض قوه :

ونحب أن نتوسول اليهن حتى تقف مؤامرتهن الواسـعة النطاق التى تقضى بأن يزداد العرى فى الصدور والظهور !

لقد والله دهشت اذ رأيت فى منتدى بالوايلى فتاة فى السادسة عشرة من عمرها . بصحبة سيد وسيدة فى سن الشيخوخة وغاية التحشم .

أما البنت .. فياللهول !

ظهرها كله مـجرد من الثياب . وصدرها مربوط من الكتفين بخيطين رفيعين .. ثم ماذا تراها صانعة تلك البنت « المفعوصة » غدا ؟!

وكيف لايخـجل من صـحبتـها هذان الشيخان الوقوران اللذان تجردا

أمامهما من كلى ارادة ؟!

وهل هذه هى طريقة اعدادها لتكون زوجة فاضلة وأماً كاملة .

فاتقوا الله فى أمتكم أيها الكتاب .. ولاتنسوا أبداً أننا شرقيون مسلمون .. واعلموا أن هذه المدنية التى تصيحون بحمدها .. لايرضى عنها موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام .

غـــــرور

وجاء البشـيـر أن ارجع يا « أبا جـهل » فـقد سلمت العـيـر ونجـا أبو سفيان . « ولكن » أبا جـهل تكبر ! .. أغوته جند جندها وأموال جمعها .. وأسياف صقلها ! ثم نظر فى صحابه قائلاً :

لا والله لانرجع أبداً حتى نوافى بدرا . ونشرب الخمر وننحر الجزور وتعزف علينا القيان ونطعم بلحومنا العرب .

والتقى الفريقان .. فركب المؤمنون صدور المشركين وأقفيتهم .. وانتثر ملك الكثرة الكاثرة أمام فئة قليلة عدتها الايمان .

ثم رفرفت راية النصر على رؤوس المؤمنين .. بينما نكست هناك فى العدوة القصوى أعلام المشركين .

وهنا يبتسم القدر ساخراً .. ويشرع قلمه ليخط قصة الغرور .. كيف انتهت :

لقد شرب المشركون كئوس المنايا .. بدل أن يشربوا الخمر !

وناحت عليهم النائحات .. ولم تطربهم ألحان القيان !

وقطعت السيوف الباترة جسومهم لتصبح غذاء دسماً للطير والذباب !

ونحرت جزورهم حقاً .. ولكن نحرها المسلمون وحدهم .. وطعموها حلالا هنيئاً .. بعد ماشربوا خمر النصر مريئاً !!

وتهدم قصر المغرور .. لأنه لم يبن على أساس !

وهزم المشركون !

قال حكيم :

مثل الدنيا والمغرور بها .. كرجل ألجأه الخوف إلى بئر تدلى فيها .. وتعلق بغصنين نابتين على شفير البئر .. ووقعت رجلاه على شئ .. فإذا بحيات أربع قد أطلعن رؤوسهن من جحورهن . ونظر إلى أسفل البئر فإذا بثعبان فاغرفاه نحوه .. فرفع بصره إلى الغصن الذى يتعلق به .. فإذا فى أصله جرذان : أبيض وأسود يقرضان الغصن لايفتران .

فبينما هو مغتم يحاول أن ينجو .. اذ أبصر قريباً منه جحر نحل به عسل . فلما ذاقه شغلته حلاوته عن الفكر فى أمره والتماس نجاته . ولم يذكر أن رجليه فوق أربع حيات .. لايدرى التى تساوره منهن . وأن الجرذين دائبان فى قرض الغصن الذى يتعلق به ..

وأنهما اذا قرض من قرض الغصن .. وقع ثم هلك !

قال الحكيم :

فشبهت الدنيا المملؤة آفات وشروراً ومخاوف بالبئر .. وشبهت الحيات الأربع بالأخلاط الأربع التى فى جسد الانسان .. من المرتين والبلغم والدم .

وشبهت الغصن الذي تعلق به بالحياة .. وشبهت الجرذين الأبيض والأسود .. اللذين يقرضان الغصن دائبين لايفتران بالليل والنهار ودورانهما

فى افناء الأيام والأجيال .

وشبهت الثعبان الفاغرفاه بالموت الذى لابد منه .

وشبهت العسيلة بالذي يراه الانسان ويسمعه ويلبسه .. فيلهيه ذلك عن عاقبة أمرة .. وما إليه مصيره .

الهاربون من الحياة

سألت نفسي :

ماذا لو أن آدم أب البشر أمضى بقية عمره في رياض الجنان .. ولم ينزل إلى الأرض يضرب في مناكبها ؟

اذن لأقفرت جوانب الأرض .. ولم نجد انساناً يدب فوقها !

ماذا لو أن محمداً سيد البشر بقي في غار حراء يتعبد السنين الطوال.. ثم ترك الملك للمالك ؟!

اذن لأفنى الخلق بعضهم بعضا .. ولسار موكب الحياة في حنادس الظلم لايلوى على شئ .

ولو أن « فلمنج » مخترع « البنسلين » قبع في داره ولم يخرج إلى الدنيا الصاخبة .. لكان عدد الأحياء اليوم أقل بكثير مما هو عليه الآن ..

ولكن روحه انطلقت من سجنها الضيق .. وساحت في شعاب الأرض.. فاستطاع أن يهب الحياة للملايين .. فهل عرف هذا أناس عشقوا البقاء في صوامعهم متنسكين .. وهربوا من الميدان عاجزين .. وسوف يرزقهم الله .. كما رزق الطيور في أعشاشها ؟!!

إن الإسلام لم يكن فقط آيات تتلى .. ولكنه بجانب هذا .. دين جهاد وجلاد في سبيل الرزق .

ان رجلاً يركب قدميه وراء حزمة من الحطب يشترى بثمنها لقمة العيش .. أعقل بكثير من عابد حكم على نفسه بالموت .. وعلى أطفاله بالحرمان !

وقديماً مر عيسى عليه السلام برجل يتعبد فى صومعته ..

فسأله :

ماذا تفعل ؟

قال أتعبد ..

قال من يعولك ؟

قال أخى ..

قال أين أخوك ؟

قال يدخل يعمل فى حقل ..

فقال له عيسى : أخوك أعبد منك !

ولا عجب إذا كان فى سجل المرء ذنوب لايمحوها إلا عرق الكفاح من أجل الرزق .

أيها الجالس فوق الصخرة ومن حولك الماء يجرى :

أما رأيت العنكبوت ؟

أنها حشرة تافهة لا تساوى فى نظرك شيئاً .. ومع هذا .. فقد عرفت

واجبها دونك ! وآية ذلك أنها نسجت لبوسها بيدها !

وتسبيح اليمامة على فرع غصنها .. لم يلهها عن أن تطوف بالوادى باحثة منقبة ..

ثم تعود مع الأصيل .. وبين منقارها قبضة من القش ترمم بها عشها!

إن الشارع البصير حينما حبب إلينا العبادة أو الزهد .. لم يكن يطلب منا أن نجلس فى البيوت مع العجزة والكسالى .. ولكنه فضل العمل الشريف .. شريطة أن لاتخسر الدين فى طريقك إلى الدنيا .. وأن تتخذ إلى غايتك وسيلة عادلة .. بحيث لا تمس حقوق الآخرين .. وفى الحديث :

« أعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً . واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا »

وهل بعد هذا من دليل شرعى يوضح قيمة العمل ؟

بين العلم والمال

أيهما تفضل .. العلم أم المال ؟

سؤال عسير .. أعيا جوابه العلماء ! فراحوا بين محبذ للعلم ومنتصر للمال .

قال بعضهم :

ان المال يقات به العالم . وبه تقوم النفوس قبل أن تعرف فضيلة العلم.. فالمال اذن أصلى بالنسبة له .. والأصل متقدم على الفرع رتبة ووجوداً !

وكأنى بالامام الثورى يفزع منكراً عليهم إذ يقول :

« العالم طبيب هذه الأمة .. والمال داؤها .. فإذا كان يجر الداء إلى نفسه فكيف يعالج غيره ؟! »

وسئل حكيم : العلماء أفضل أم الأغنيا ء ؟

قال : بل العلماء.

قيل : فما بال العلماء يأتون أبواب الأغنياء أكثر مما يأتى الأغنياء أبواب العلماء ؟

قال : لمعرفة العلماء بفضل الغنى .. ولجهل الأغنياء بفضيلة العلم .

قيل : وكيف يستوى المال وحاجة الجميع إليه ملموسة ..مع شئ يغنى

بعضهم فيه عن بعض :

يعنى لم يطرق العلماء أبواب الأغنياء إلا لمعرفتهم قدر الغنى .. لما له من عموم النفع فى العالم .. وماقعد الأغنياء عن طرق باب العلماء إلا لما اعتقدوه من عدم شمول النفع بالعلم .

ولكن العلم فى نظر الشعبى رضى الله عنه أسمى بكثير من أن يقف مع المال جنباً إلى جنب !

فأين الثرى من الثريا ؟!

استمع إليه يقول :

« لو أن رجلاً سافر من أقصى الشام إلى أقصى اليمن .. وتعلم كلمة من العلم لم يضع سفره »

أى أن انفاق آلاف الجنيهات .. مضافاً إليها مشقة السفر ووحشة الطريق .. لاتزن فى نظره جملة علمية مفيدة !!

وأيضاً مما يؤيد سمو العلم .. قوله تعالى :

﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾

فلما علمه الله الأسماء رفعه فوق الملائكة درجات .. ثم أمرهم بالسجود له . وحدثنا التاريخ أن أهل البصرة اختلفوا .. فبعضهم فضل العلم . وبعضهم فضل المال ..

فبعثوا رسولا إلى ابن عباس رضى الله عنه يستفتونه فى ذلك .

فقال : العلم أفضل ..

فقال له الرسول : ماذا تكون حجتى إذا رجعت إليهم .

قال أخبرهم : أن العلم ميراث الأنبياء .. والمال ميراث الفراعنة .

ولأن العلم يحرسك .. وأنت تحرس المال .

ولأن العلم لايعطيه الله إلا لمن يحبه .. والمال يعطيه الله لمن أحبه ولمن لايحبه .. بل يعطى لمن لايحبه أكثر .. ألا ترى قول الله عز وجل : ﴿ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ﴾

ولأن العلم لاينقص بالبذل والنفقة .. والمال ينقص بهما . ولأن صاحب المال إذا مات انقطع ذكره .. والعالم إذا مات فذكره باق .

ولأن صاحب المال ميت .. وصاحب العلم لايموت . ولأن صاحب المال يسأل عن كل درهم من أين اكتسبه . وأين أنفقه .. وصاحب العلم له بكل حديث درجة فى الجنة .

انتهى كلام ابن عباس رضى الله عنه ..

والقول ماقالت حذام .

القمص بطرس عبد الملك غير « مستريح » لآراء معظم التفاسير القرآنية فى أوائل السور مثل « ص ، كهيص ، ألم » .

وهو يرى أنها رموز لآيات قرآنية .

ولم يبين لنا ماهى تلك الآراء التى لم « يسترح » لها . ثم يوضح ما إذا كانت هناك أسباب حدت به إلى هذا الحكم .

والقرآن الكريم ليس وقفا على طائفة معينة تحتكر فهمه ودرسه .. فلم يزل مبسوطاً أمام كل عين .. ميسراً لكل عقل .. ولكن ذلك لايمنع من الرجوع إلى العلماء المختصين .. لاسيما فى مثل هذه المواضع الدقيقة .

فليس من المعقول أن يفتح باب التأويل والاستنباط على مصاريعه .. ليدخل فيه أنا وأنت والآخرون .. هكذا جزافا .. !

بل لابد من قواعد وأصول .. ولابد من صفات معينة تتوفر لدى كل شخص يتصدى للتأويل والتفسير .

هناك رجل فطن ذكى .. ولكن الفطنة والذكاء وحدهما لايرشحان أحداً لكى يفسر كلام الله للناس :

فرجل مثل بشار بن برد ذكى أديب أريب .. يستطيع أن يستنبط .. وأن يفهم مداخل الكلام وحل غموض التراكيب .. ولكن شهوته بالمجون .. وذيوع صيته فى الاستهتار .. كل ذلك لا يجعلنا نأمن عدم تدخل هواه فيما

يتعلق به من أحكام .

بقى علينا أن نبين للقارئ بعض الآراء حول هذه الحروف .. وهى آراء لاتعدم أن تلمس فيها لمحة العقل وضياء البصيرة .. فأبن عباس رضى الله عنه يرى أن الله أقسم بهذه الحروف .. وابن مسعود يقول :

انها اسم الله الأعظم .. وقيل فى « كهيعص » :

الكاف من كريم وكبير . والهاء من هاد . والياء من رحيم . والعين من عليم وعظيم . والصاد من صادق .

ويرى البعض أن ورود هذه الأسماء على نمط التعديد انما هو ايقاظ لمن تحدى بالقرآن .. وبعث لهم لينظروا في أمر هذا المتلو عليهم :

إنه كلام منظوم من عين ماينظمون منه كلامهم .. وقد عجزوا عنه كلهم.

فكان عجزهم عن الاتيان بمثله .. وهم أمراء الكلام .. وأرباب الفصاحة والبلاغة .. دليلاً قاطعاً على أنه ليس من كلام البشر وإنما هو كلام الله تعالي .

وقيل ان ورود السور مصدرة بذلك ليكون أول مايقرع الأسماع مستقلا بوجه من الأغراب .. وذلك لأن العرب كانوا مستوين فى النطق بالحروف :

الأميون منهم وأهل الكتاب .. بخلاف النطق بأساس الحروف .. فهو خاص بمن خط وقرأ وخالط أهل الكتاب وتعلم منهم .

فكان نطق الرسول بذلك .. مع أنه لم يتعلم من أهل الكتاب دليلاً على أن ذلك حاصل له من جهة الوحي .. وفي الوقت نفسه .. شاهد صدق على صحة نبوته عليه الصلاة والسلام .

ضيوف الشيطان

قال جابر بن عبد الله رضى الله عنهما :

هاجت ريح نتنة على عهد رسول الله ﷺ فقال عليه السلام :

ان أناسا من المنافقين قد اغتابوا أناساً من المسلمين .. فلذلك هاجت هذه الريح المنتنة .

وقيل لحكيم :

ماالحكمة فى أن ريح الغيبة ونتنها كانت تتبين على عهد الرسول ولا تتبين فى يومنا هذا ؟

قال لأن الغيبة قد كثرت فى يومنا . فامتلأت الأنوف منها فلم تظهر الرائحة وهى النتن .. ويكون مثال هذا :

رجل دخل دار الدباغين .. فهو لايقدر على القرار فيها من شدة الرائحة .. ولكن أهل تلك الدار يأكلون فيها الطعام ويشربون الشراب .. ولاتتبين لهم الرائحة .. لأنه قد امتلأت أنوفهم منها .. كذلك أمر الغيبة فى يومنا هذا !!

أسوق هذه العبرة لقوم نشوتهم الكبرى أن يعددوا مساوئ الغير .. فلا يحلو لهم عيش إلا إذا مزج بهذه الروح الخبيثة .. التى تغدو فى حلوقهم شراباً ينسيهم بأساء الحياة .

ولقد دعاهم الشيطان إلى مائدته فأقبلوا عليها سراعاً .. فماذا وجدوا فيها؟

لقد كان طعامها المفضل لحوم اخوانهم المؤمنين .. وكان شرابها السلسال دماءهم الغالية !!

... قال الشيخ لابنه التقى :

انى أعجب : كيف أن الورع والتقى لم يمنعانك عن اغتياب أخويك: شقيقيك ! كن كأخيك لاهياً .. وكف عن الغيبة .

ان الدهشة لتأخذ على النفس أقطارها عندما يستبين لى أن هؤلاء الذى يذكرون مساوئ غيرهم دائماً .. انما هم اناس يسبحون فى مستنقعات الذنوب !

تحوطهم العيوب الشائنة من فوقهم ومن تحت أرجلهم !

وكأنهم يمسلكهم المعيب يريدون أن يتخذوا من أخطاء سواهم وقاء يحجبهم عن أعين الناظرين .. حتى لا تنكشف طباعهم النجسة .. وهيهات . فالرجل الحصيف يعلم جيدا أنه لا ينقد البلبل الصداح إلا الغراب الناعق ! ولن يشتم العظماء إلا قزم حقير ليس له من مقومات العظمة شروى نقير !

ياليت قومى يسمعون «الامام مالك » حين يقول :

كان عندنا بالمدينة قوم لاعيوب لهم .. فتكلموا فى عيوب الناس فصارت لهم عيوب .. وكان عندنا قوم لهم عيوب .. فسكتوا عن عيوب الناس

فنسيت عيوبهم .

قد يقول شخص :

اننى اذكر نقائص فلان وهى موجودة وهو متصف بها فعلاً ! ولو سئلت عنها وأنكرتها لكنت كذابا .

ولكنى أقف اجلالاً لأستمع إلى الرسول الكريم يقطع عليه وعلى أمثاله الطريق :

دخلت امرأة قصيرة على النبى عليه السلام فلما خرجت قالت عائشة رضى الله عنها : ماأقصرها !

فقال عليه السلام : اغتبتيها .. قالت عائشة : ماقلت إلا ما فيها !

قال الرسول : ذكرت أقبح مافيها ..

ولقد جسم هذا المعنى سيدنا عيسى عليه السلام :

قال لأصحابه يوماً :

أرأيتم لو أتيتم على رجل نائم قد كشف الريح عن بعض عورته .. أكنتم تسترون عليه ؟

قالوا نعم .

قال : بل كنتم تكشفون البقية !

قالوا : سبحان الله .. كيف نكشف البقية ..

قال : أليس يذكر عندكم الرجل فتذكرونه بأسوأ مافيه ؟!

فأنتم تكشفون بقية الثوب عن عورته !

عجيب لأمزجة الناس .. كيف يعافون لحم الخنزير وتنقبض نفوسهم عند رؤيته .. ثم يستسيغون لحم أخيهم الانسان وهو أشد .. وأعظم اثماً ؟!

- كيف يرون القذى فى عيون غيرهم ثم لايبصرون الخشبة الممتدة فى عيونهم ؟

فطوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس .

كيف يستمرئون تسخير جهودهم فى تعداد مثالب عبد من عباد الله ثم لايوجهونها شطر ابليس عدو الله ؟

عجيب لانسان يميزه العقل !

قال سفيان بن الحصين :

كنت جالسا عند اياس بن معاوية.

فمر رجل فنلت منه .. فقال اسكت .. ثم قال لى : ياسفيان :

هل غزوت الروم ؟

قلت لا ..

قال : هل غزوت الترك ؟

قلت :لا ..

قال : سلم منك الروم .. وسلم منك الترك ..

ولم يسلم منك أخوك المسلم ؟!!

بين الحب والاحترام

حرص الفيلسوف " بياس " على أن لايتدخل فى نزاع يقوم بين أصدقائه. لأنه وان عدل فى حكمه .. سيخسر منهم واحدا ..

وتنفيذاً لهذه الخطة الناجحة. نراه يصر على أن يفصل فى منازعات أعدائه. فهو لابد حاكم فى صالح أحد الطرفين ..

وعندئذ سينقلب العدو حبيبا .. وهذا تبجيل منه لحرم الصداقة المقدس.

فالمرء فى حاجة الى رفيق يؤنس وحدته فى طريق الحياة الموحش.. فى حديثه العذب ملهاة عن شجون العيش .. وفى ابتسامته الساحرة أرجوحة تقفز بك من واد قفر إلى آخر تسمع فيه ترنيمة السعادة .

ولكن .. أين أجد هذا الصديق ؟

ان هذا الطرز من الأصدقاء قليل .. لأن الرجال قليل !

أين صديقى الذى يمسح بأياديه الوضاءة جراحى النابحة فتشفى ؟

أين هذا الذى اتخذ من قلبه العطوف محرابا أبثه شكواى . واسمعه صراخى إذا هبت على ريح السموم . وبدأت تمزق شراع حياتى .. فى ساعة اليسر تلقاهم علي امتداد البصر .. أما ساعة العسرة .. ساعة أن تظهر أقدار الرجال .. ينفرون منك .. ويدعونك فى صحراء الحياة .. وحدك . وتصرخ فلا يسمع نداءك إلا أخوك .. أبن أمك وأبيك !

انما مثل الصديق المنافق كدودة القز .. ألم تر كيف تولد هذه الدودة ؟

ستجدها عند بدء حياتها شكلاً ينافى شكلها عند موتها .. هكذا صديقك المنافق .. تاجر الأصدقاء .. لايستقر على حال من القلق والحقد . يحترمك .. ولايحبك .. وما أبعد الفرق بين الحب والحترام !

ثم انظر معى ياقارئى إلى القط .. إنه يظل محتفظاً بشكله العام دائماً .. يولد قطاً .. ويعيش قطاً .. ويموت قطاً !

هذا هو صديقى الذى أحبه وأحترمه ..

وصديقك كما ينبغي أن يكون .

كل يغنى على ليلاه

تفيأت ظلال شجرة التوت على شاطئ الغدير . فبدأ الماء كأنه ثعبان يثب نحو غرضه وثباً .. أوفضة مذابة صهرتها يد الأقدار فجرت فى هذا الأخدود ماء .. وسرحت الطرف المأخوذ بجمال الطبيعة فى أجواء الفن الألهى .

فأيقنت أن الله على كل شئ قدير .

وعلى حين غفلة أقترب منى ثلاثة من أهل القرية .

فقال محمد « الفلاح » :

أراك ياشيخ منسجماً مع الماء والهواء .. هل تؤلف خطبة الجمعة ؟

كأنك تستنزل الأفكار من شجرة التوت هذه ..

ألا فلتنزل معى إلى الواقع الملموس .. واضمم إليك خيالك الذى تسامى في جو السماء .

ألا ليت هذه الشجرة لى .. إذا لكانت محراثاً جميلاً !

فقاطعه سعد « النجار » قائلا : لا .. لو كانت ملكى أنا لأخذت منها بابا يسر الناظرين ..

ثم صاح ابنه الصغير : إن أكل التوت لذيذ يا أبى .. لذيذ ! متى يأتى الصيف .. عسى أن يكون قريباً .

فقلت عجباً .. كل يغنى على ليلاه !

كل منهم نظر إليـهـا من النافـذة التى يطل منهـا على مـصلحـتـه الشخصية .. وتذكرت الامام الشافعي أرضاه الله .. فقد تفقد شجرة التوت مرة فقال :

« هذا ورق التوت : لونه واحد . وطعمه واحد . يأكله الدود فيخرج منه الحرير . ويأكله النحل فيخرج منه العسل . وتأكل منه الشاة والبقر فتلقيه بعراً وروثاً . وتأكله الظباء فيخرج منه المسك . وهو شئ واحد فتبارك الله أحسن الخالقين »

لقد نظر الامام الشافعي إلى الشجرة بعين قلبه فأبصر الكيف . ونظر الثلاثة إليها بعين رءوسهم المجردة فأبصروا بها الكم ..

يا ناظرا يرنو بعيني راقد ∴ ومشاهدا للأمر غير مشاهد

إن الفـرق بينهم وبين الامـام العظيم شـاسع جداً .. لاتقطعه أمـهـر الطائرات النفاثة فى عصرنا هذا !!

ذلك لأنه الفرق بين لمحة البصر ونظرة البصيرة .. بين منطق المادة ومنطق الروح .. بين الأرض والسماء .

بائع العرقسوس

مشى بائع العرقسوس خلال الدروب يزكي شرابه .. وفجأة زلت قدمه فتحطمت كأسه على الأرض رذاذا – وتحطمت معها أماله فوق صخرة الواقع المرير .. وقام الرجل من عثرته يجمع شتات الزجاج على استحياء وماذا تأخذ الريح من البلاط ! وجاءه « أولاد الحلال » يهرعون إليه فمد كل منهم يده إلى البائع المكلوم مساهمة فى بناء مستقبل جديد .

ولمحت على وجهه النحيل تغيظا وعبوساً . خلته أول أمر عتاباً للقدر .. واشد ماكانت دهشتى عندما فهمت أنه عتاب مر لهؤلاء الذين يريدون له عيشا رغدا فأقبلوا إليه يواسون !!

وانتفض وجهه .. فارتعدت لحيته الشهباء المرسلة .. وصاح : كيف يقبل الصدقة وهى غسالة أوساخ الناس ؟!

ان السماء تمتحننى فى أعز ما لدى .. أتريدون أن أسقط فى الامتحان ؟! ثم رفع رأسه فى اباء وشمم .. وسار به زورق الكفاح فى خضم الوجود .. ولم يرض إلا أن يلقاه الله حيث أمره صابراً عاملاً .. وفشل جليد اليأس فى أن يخمد فى نفسه جذوة الأمل .. بل تفتحت براعمه وبدأت ترعى هباء الحياة .. وأيقنت أن الغنى ليس بالمال .. ولكن .. عن المال ! وقفز إلى ذهنى قول أمير الشعراء :

قلما رفعت رجلاً نفسه فوضع . وقلما وضعت وجلا نفسه فرفع .. ثم تذكرت صاحب الضياع الذي انتقد الحكومة لأنها لم تترك له غير مائتي

غدان .. فقط !!

يالغنى النفوس فى أجمل معانيه .. ويالفقر النفوس فى أقبح صوره

لاغرو أن فاق الدنئ أخا العلا ∴ فى ذا الزمان وهل لذلك جاحد

فالدهر كالميزان : يرفع كل ما ∴ هو ناقص ويحط ما هو زائد !!

أصدقـــاؤنا

المرء بلا صديق كاليمين بلا شمال كما يقولون . هذا الصدر الحنون .. هذا الركن الشديد هو عنوانى عند الناس . وبقدر حكمهم على أخلاقه يكون تقديرهم لأخلاقى .. فنحن منظران مكرران لأصل واحد .

ورضى الله عن عبد الله بن مسعود اذ يقول :

« مـامن شئ أدل على شئ . ولا الدخـان على النار .. من الصـاحب على الصاحب »

ومن هنا كان حتمـاً على أن أقف به فى الطريق مـراراً . لأستـشف نفسه . مخافة أن تتعرض لصدأ الأيام فتقسو .. ثم يسقط فى الهاوية .. فيأخذنى معه !

كـان واجبـاً فى عنقى أن أسلط عليـه أضـواء النقد .. مـادامت نظرة الناس إليهم هى نظرتهم إلي :

فقسا ليزد جروا ومن يك حازماً ∴ فليقس أحياناً على من يرحم

ولقد قرأت للفيلسوف « بياس » توجيهات سـامية حول هذا الموضـوع منها :

« عليك بحب أصـدقـائك مع الاقـتـصـاد » وكن منهم على حـذر فـربما صاروا لك أعداء واقتصد فى بغض أعدائك .. فربما صاروا لك أحباباً .

وهذا ماعناه شاعرنا العربى القائل :

احــذر عدوك مــرة ∴ واحذر صديقك ألف مرة

فلربما انقلب الصديـ ∴ ـق فكان أعلم بالمضــرة

قد يرمينى صديقى بالجفاء إذا حاولت أن أنقده لأنقذه .. غير أنى لن أتوانى عن موقفى كصاحب يهمه أن يرى صاحبه رجلاً ..

يكفينى أننى أخدم الصداقة التى أقسمنا على أن نسير تحت لوائها مخلصين ..

أما هؤلاء الذين لايختصمون أبداً ولايختلفون .. فهم الرهبان فى صوامعهم .. لايكلمون أحداً .. ولا يعاشرون أحداً .

فى دنيا الوجاهة!

يحدث أن يذهب شخص إلى الطبيب لعمل جراحة فى وجهه .. وتقتضى اجراءات « العمليه » أن تسقط بعض أهداب عينه .. فيفقد بذلك قدراً من جمال .

فنجده حيران لايتقار على فراشه . طارقاً أبواب معاهد التجميل .. مستخدما كل أنواع العقاقير حتى يعيد إلى وجهه المنقوص نضارته الأولى . وقد يحدث أيضاً أن تظهر على « ياقة » القميص أعراض غبار لا تكاد ترى الا « بميكروسكوب » ! ولكنه سرعان مايذهب إى الكواء مستنجداً .. حتى يبدو أمام الناس أنيقاً رشيقاً .. فهذا من مقومات الشخصية فى عصرنا الحالى!

وبالأمس .. قابلت واحداً من هؤلاء الذين يبتغون الوسيلة إلى «الوجاهة»

قلت لصاحبى :

هأنتذا على مايرام « فارع القوام » منمق الهندام . ولكن .. هل فكرت فى أن تقوم بقلب نظام حياتك ليقف على رجليه ؟!

فبدأت بالأناقة من داخل نفسك .. ثم تركتها تأخذ طريقها الطبيعى حتى تشملك خارجياً ؟

يجب أن تطهر قلبك من حقد فيه مقيم .. وأن تجلو عن صدرك غشاش حسد جاثم عليه .. وأن تطرد عن نفسك همزات الشيطان الذى

يجري منك مجرى الدم .. وتتأكد : هل رق فؤادك فأطعمت جارك البائس فبات مثلك شبعاناً ؟

هل أقنعت زوجك أن قول الصدق هو أحسن طلاء للشفاه .. وأن الفضيلة هي أجود « بودرة » تجمل بها النفوس ؟

وهل أتاك حديث الرسول ﷺ :

« إن الله لاينظر إلى صوركم وأجسامكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم ؟ »

يا أخي :

لقد أفلحت معاهد التجميل في أن تبدو وجيهاً أمام الناس .. ويجب أن تفلح ارادتك في أن تبدو أمام الله وجيهاً !

مهــــلاً يا حــــواء !

يقرر « توماس هوب » أحد علماء الأنجليز أن سبب ماهو عليه من الجبن :

أن أمه استولى عليها الخوف وهى حامل به حينما كان الأسطول الأسبانى يهدد بلادهم . .

من ذلك يتبين بوضوح أن للأم فى تحديد شخصية الطفل شأنا أى شأن .

وأنها الدعامة القوية التى يعتمد عليها البيت .. انها نار ونور .. شقاء وسعادة .. وفى استطاعتها أن تجعل من بيتها الصغير جنة وارفة الظلال دانية القطوف .

فى استطاعتها أن تخدم الانسانية المعذبة فى هذا الزمن الذى ضاع فيه الحق وانقلبت منه الأوضاع .

فهى تمسك فى يدها اليمنى أجراس الحرب ونذير الجحيم .. وفى يدها اليسرى حمامة السلام تستطيع فى أى وقت أن تطلقها ترفرف بأجنحتها الحانية فتجعل من الخوف أمناً ومن الشقاء نعيماً .

يقول « فرويل » أحد علماء الألمان :

« أن أزمة الممالك معقودة بنواصي الأمهات » ومستقبل البلاد رهن بأيدى النساء .

.. ويخطئ الذين يظنون أن استعداد المرأة أوسع من دائرة البيت . فمهام البيت كثيرة خطيرة .. وانه لبنة فى بناء الوطن الكبير ..

فإذا اضطربت اللبنة اهتزت لها أركان البناء جميعاً .. انه الوطن الصغير الذى تربى فيه رجال الوطن الكبير .. ومعمل التفريخ الذى يملأ أرض الوادى الرحيب بهجة ونوراً .

فماذا على المرأة لو أطاعت ربها وسكنت مملكتها ؟

واتخذت من صياح أطفالها لحوناً تشرح النفوس .. ومن ارشادات زوجها ودينها كتاباً يذهب عن النفس متاعب الحياة وآلامها .

إن الإسلام لايريد من المرأة أن تكون كالدودة تمشى فى الأرض لاتنفع إلا نفسها .

ولكنه يريدها كالبازى .. لها آمال تفنى لأجلها .. ومستقبل ترنو إليه . غير أن تلك الآمال .. وذلك المستقبل لابد أن يكونا في سياج من الفضيلة حتى لاتكون فتنة لاتصيب الذين ظلموا خاصة !

اننى أحب الحرية .. وأعشق المساواة .. غير أنى أحياناً أكره الحرية التى تنشدها المرأة .. والمساواة التى تتغنى بها !!

ثلاثة

جلسوا حول مائدة الشيطان يأكلون لحم أخيهم ميتاً : إنه فاسق حقير بخيل .

ثم فارق أحدهم المجلس .. فسلقه الاثنان الباقيان بألسنة حداد أيضاً!

لقد قطعوا جل يومهم يأكل بعضهم لحم بعض .. كل يرمى أخاه بأنه فاسق حقير بخيل .. والحق ضائع بينهم جميعاً !!

بل ربما نسى أحدهم طعامه وشرابه فى غمرة هذه النشوة الكبرى .. ولا غرابة فى هذا .. فهناك أناس يفضلون لحم الإنسان يأكلونه حراماً .. على طيبات الحياة يطعمونها حلالاً !

هؤلاء الثلاثة الذين ينتمون إلى الجميعة البشرية مع الأسف .. فى حاجة إلى هدم جدار هائل من الحقد يقع فاصلاً ثقيلاً بين ارادتهم وضميرهم .

ان ضمائرهم تهتف : أفيقوا أيها الناس . وانتشلوا أقدامكم من حظائر الحيوانات الضارية .. ولكن جدار الحقد هذا يحجب صوت ضميرهم اللاهث فلا يصل إلى الإرادة صوته .. وحينئذ تظل خامدة هامدة . لاتدفعه إلى خير . ولا ترده عن شر .

وأرجوك ياقارئى أن تغمض عينيك لتغيب عنك هذه الصورة البشعة ..

ثم لتفتحها من جديد على ثلاثة من البشر آخرين :

انهم يحتضنون رمال الصحراء تحت أشعة الشمس الصاهدة . أثقلتهم الجروح بعد طول جهاد فى احدى المعارك الاسلامية الكبرى . هاهو ذا انسان يتقدم إلى احدهم بقدح فيه ماء .. ليخفف عنه حرارة الألم .. فيرجوه أن يعطيه لزميله فهو أحق به منه .

ثم يذهب إلى زميله هذا .. فيدفعه بدوره إلى ثالثهم وهو يردد مقالة الأول ! ويندهش الساقى .. فقد وجد الثالث قد فارق الحياة .. ثم يلحق به رفيقاه واحداً بعد واحد !

ماتوا جميعاً .. وبقيت الكأس ملأى !!

لله .. ماأجمل الحب .. مستحيل أن يسكن الحب والحقد قلباً واحداً .. لقد هدم الأخيرون جدار الحقد بفأس الحب .. فوصل نداء ضميرهم إلى ارادتهم قوياً سارياً .

ومن أجل هذا ماتوا جميعاً شهداء الحب .. رغم أنهم جميعاً كانوا فى أشد الحاجة إلى قطرة ماء تروى غلتهم وسط آلام الجروح ولهيب الصحراء . أن العقل يهتف بأن الثلاثة الأولين ميتون !

فليس لهم مروءة تسجل أسماءهم فى قائمة الأحياء .. ميتون وان كانوا يأكلون مثلنا .. ويمشون بيننا .. أما الآخرون فهم أحياء يرزقون .. وان كانوا صامتين لايتكلمون !

عجباً .. لقد أكل الأولون لحوم أخوانهم .. فماتوا .. وامتنع الآخرون عن الغذاء.. فعاشوا !!

بعد الجلاء

من خلال البهجة التى غمرت جوانب نفسى . ومن وراء دموع الفرح وقد فاضت بها عينى .. أرى العملاق المصرى يستيقظ صباح أمس .. نافضاً عنه غبار السنين .. محطماً قيودا طالما كبلته تكبيلا .. وعاقت خطواته الواثبة عن السير مع القافلة إلى قمة الحياة .

كان فجرا باسماً .. ذلك الذى أرسل فيه العملاق يده القوية عبر القنال فيلقى بآخر سفينة بريطانية فوق أثباج المحيط الواسع فتجرى مع الرياح هلوعاً .. تحمل على ظهرها نهاية مرحلة حاسمة من تاريخ حياتنا .. مرحلة آهلة بالحوادث والأزمات .. كافحنا فيها المستعمر مستميتين .. ثم انتصرنا على الامبراطورية العجوز .. على رغم عددها الضخم وعتادها الفتاك !

مضت تحمل فوق ظهرها المعتدين وبقيت لنا معانى القوة والأصرار :

معان تشرق على العالم كله .. فيبصر فى سناها الآخذ كفاح أمة حرة لم تجنح للسلم أبداً مادام الأستعمار يلهو على أرضها .. فيسلبها هناءة الطعام ومراءة الشراب .

معان فى التضامن والأخاء .. كانت أروع مثل على أن « مصر الثورة » لم تعد فى حقل البشرية أحزاباً ضارية .. يأكل غنيها قوت فقيرها .. ولكنها غدت فى الحقل الكبير قيثارة ترسل إلى الأسماع أناشيد الوحدة فى لحن شجى وتنغيم حنون .

معان في التضحية .. تبلورت في بسالة أطفال لم يبلغوا الحلم بعد .. ومع ذلك فقد وقفوا على أرض القتال أبطالاً .. وحطموا بأناملهم البضة جيشاً مدججا بأمضي سلاح !؟

معان جليلة .. تكشف عن شعب أصيل . غالب فغلب .. وجاهد فانتصر .. ودفع ثمن الحرية من دمه وعرقه ودموعه فنالها عن جدارة واستحقاق .. ولم تأته هبة من أحد .

وتشهد الدنيا .. ويسجل الزمان .. أن « مصر الثورة » وقد نالت استقلالها بعرقها ودموعها لهى قادرة على أن تحمى هذا الاستقلال من عبث العابثين .

وأن هذه الحرية التى اشتريناها بأرواحنا .. ستظل جوهرة باهرة تشع فينا معانى الحب والتعاطف حتى يأخذ الشعب المجاهد طريقه إلى أمجاد الحياة .

والآن .. وبعد أن حققت الثورة أعز أمانينا .. فطردت الغاصب الغاشم من ديارنا .. أحس بامال عذاب تداعب خيالى فينشرح لها قلبى..

لقد كان المستعمر بيننا أتونا مستعرا يذيب فى جوانحنا كل معانى الحب والاخلاص ..

لقد باعد حتى بين الأخ وأخيه .. والوالد وبنيه .. واليوم .. وقد نضحنا جمر الأتون بماء الكفاح فأنطفأ وخمدت جذوته .. وأصبح فى ذمة التاريخ

مثلاً رائعا يسجل انتصار الحق واندحار الباطل .. في ضوء هذا الشعاع أريد لقومي أن ينظروا إلي الوراء قليلاً .. فيتخذوا من أحداث الماضي دروساً يعتبرون بها .. ومشاعل خفاقة تضئ أمامهم الطريق إلى مستقبل أفضل .

ياليت قومي يعلمون أننا يوم أن تضاربت آراؤنا وتصارعت رغباتنا .. لم نجن شيئاً غير الخسران المبين .. ووجدنا أنفسنا بين فكي الاستعمار لقمة سائغة شهية .

واليوم وقد وحدت بيننا الثورة .. استطعنا أن نرتفع بهاماتنا في المجتمع الدولي .. فخورين بعروبتنا .. معتزين بمصريتنا .. فهل لنا أن نأخذ العهد سوياً على أن نكون يداً واحدة .. فنلقي بمخلفات الجيوش الغاربة وراءهم في عرض البحر.

ولا أقصد بالمخلفات مباني شيدوها أو عربات صنعوها .. إنما أقصد هذه العادات المرذولة التي غرسوها في روعنا بحيث لاتتفق وهذا الشرق الأصيل .. مهبط الوحي ومبعث الحضارات ..

لقد أخرجنا المستعمر من حظيرة الأخلاق الفاضلة .. ورمانا في صحراء المجون قطيعاً ضالاً .. لايدري أمشرق هو أم مغرب .. وأريد أن نبدأ معاقبتني للأخلاق صرحاً ثابت الدعائم بسامق البناء ..

أريد أن أغمض عيني وأفتحها لأرى بلدي مدينة فاضلة كتلك التي كان الفارابي يحلم بها .. يؤدي كل فرد فيها وظيفته اللائقة به .. والتي تلائم

كفاياته .. وأفراد المجتمع كأعضاء البدن .. متضامنون .. يخضعون لرئيس المدينة .. ويتشبهون به .. لأن ذلك الرئيس قد أوتى من الخصال الرفيعة مايصعب تحققه فى عامة الناس .

وحينئذ .. فقد عادت مصر .. كما كانت .. وميضاً يتراءى على صفحة الحياة الداجية .

وجـــاء الفـــرج

عرفته كالبحر إنعاماً والدهر انتقاماً .. إن القرية فى يده كرة يستطيع أن يقذفها شرقاً أو غرباً .. ليس فى مكنتها أن تعصى له أمراً .

إذا رأيته وأحطت بنفسيته خبراً .. تجلى لك ازدواج الشخصية فى أظهر صورة .

إنه كريم مع بيته ومع الناس .. وكل درهم فى جيبه يأخذ سبيله إلى جيب محروم .. فيجفف دموعاً .. ويأسو جراحاً .

وعلى رغم مايستلزمه الكرم من رقة ولين جانب .. فقد كان صارماً فى معاملة الخاطئين .. بحيث لايخطر ببالك أن هذا الرجل يحمل بين ضلوعه قلبا رحيماً .

وإذا كان القوى يمنع بطشه عن ضعيف لأن فى ذلك زجراً له ومتابا ..

فقد مر صاحبنا بنفس هذه التجربة القاسية :

إن طبيعته الكريمة قد تغلبت عليه .. فآوى فى بيته مسكيناً تنكرت له الأيام حتى أقرب الناس إليه .. بينما كان فى الواقع ثعباناً ناقع السموم .. وعندما أحس الثعبان الماكر دفء الحنان .. وشعر بأجنحة الأمن الساجى ترفرف عليه فى كل أفق .. نراه وقد تغلبت عليه طينته الخبيثة الماكرة !!

وكما أنك لاتستطيع أن تطلب من الماء جذوة نار .. كما أنك لن تستطيع أن تجبر مثل تلك النفسية المتعفنة على أن تستشعر الحب ناصعاً

وضاء .. فكذلك .. لن تقدر أبداً على أن تجد فى هذه الطينة قلباً يخفق أو ضميرا يؤنب !!

لقد انقلب غولا كاسراً يعمل فى الظلام على هدم بيت كان له غطاء ووقاء ..

وهنا تطبق الحكمة الفارسية القائلة :

إحذر خصومة الضعيف ! ثم تشتد الأزمة وتستحكم حلقاتها .. ويحشر الهم جنوده .. فتحيط بصاحبنا من كل جانب .. وإذا باليأس القانط يسد أمامه سبل الرجاء .. فتبدو الدنيا فى عينيه سجنا عالى الجدران .. وتنظر إلى شفتيه لترى فوقها أطيافا من الأسئلة الحائرة فى انتظار الجواب :

هل يترك الله عبده الكريم .. هكذا بلا سلاح ؟

هل يترك ولده وأهله فى صحراء الحياة ثكالى ؟ .. ثم تتخطفه طيور الحادثات وتهوى به الريح فى مكان سحيق ؟

هل يودع الحياة هكذا .. سراجا لاح فى ساعة ثم انطفأ ؟!

وكأنما سمع هاتفا من السماء يرسل إليه نداء علويا .. ملأ قلبه أملاً ورجاء .. فيتوجه إلى الله داعياً راجياً .. وتتفتح أبواب السماء .. وتتناثر القيود من حول يديه هباء .

ذلك .. لأنه كان مظلوماً .. ودعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب .

خواطر العيد

قال الأب الشيخ لابنه الصغير :

يابنى . خذ هذا الحبل والمدية وانطلق بنا إلى هذا الشعب لنحتطب . ويمضى الفتى اسماعيل إلى حيث أمره أبوه عبر الفلاة . ولم يكد يستقر بهما المقام هناك حتى يخبره أبوه بأن الله قد أمره فى المنام بأن يذبحه . وما عليه إلا أن يرى رأيه فى هذا الأمر الخطير .

ويرفع الفتى اسماعيل رأسه فى صبر ورضا قائلاً :

ياأبت افعل ماتؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين . ثم يضجعه أبوه على جنبه . فتصافح أذنيه نداءات عبقرية انفرجت عنها شفتى ولده الصغير .

« ياأبت اشدد رباطى كيلا اضطرب . واكفف ثيابك حتى لاينتضح عليها من دمى شئ فينقص أجرى .. وتراه أمر فتحزن .. واستحد شفرتك وأسرع بها على حلقى ليكون أهون على . وإذا أتيت أمى فاقرأ عليها السلام منى . وإذا رأيت أن ترد قميصى عليها فافعل فإنه عسى أن يكون أسلى لها عنى »

فقال ابراهيم عليه السلام :

نعم العون أنت يابنى على أمر الله .

وهنا تهتف الأبوة الرحيمة فى أعماق ابراهيم . فيطيل النظر فى ولده

الصغير طريح الأرض مقيداً .. فتنحدر الدموع من عينيه مدراراً .. ويرى الطفل دموع أبيه تنهمر .. فيبكى هو الآخر .. ثم تستحيل الشفرة الحادة فى يد ابراهيم برداً وسلاماً .. ويهبط الفداء من السماء .. ثم تنتهى القصة.

فأية معانٍ خالدة تنطق به .. ؟ وإلى أى حد تفاعلنا معها حينما تمر بخاطرنا ذكراها الحبيبة ؟

إن عيد الأضحى ليمر كل عامٍ فنلبس الجديد ونأكل الغالى . ثم نتبادل التحية المعتادة « كل عام وأنتم بخير » .

هذه اللفظة المملة لطول مالاكتها الألسنة ولهجت بها الشفاه .. أصبحت كلمات جوفاء .. لامعنى لها !

وتغرب شمس العيد .. فتغرب معها البسمة المصطنعة واللفظ المعسول..

ويغرب معها هذا الحدث الجليل فى تاريخ البشرية الطويل : أب يكلف بذبح ابنه فلا يتردد .. وطفل فى السابعة يطلب منه أبوه أن يضطجع ليذبحه استجابة لأمر الله فلا يتململ ولا يتمرد !!

بأبى وأمى هذه النفوس المؤمنة الصافية !

بأبى وأمى هذا الطفل الرجل ..

إن أمجاد الشعوب إنما تشاد على أمثال هذا العبقرى الصغير..

ويوم يجود علينا الزمان بأبناء يقدسون الأبوة هذا التقديس ..

ويجعلون من مطالب الأب قانوناً واجب التنفيذ .. فسوف نحيا بين الأمم أمة عزيزة مرهوبة الجانب.

وإذا كان هذا هو واجب الأبن نحو أبيه .. فما هو دور الأب إذن حتى تكمل الدائرة .. وتسير الحياة فى البيت رخية طيبة ؟

إنك لتجد الرجل يحرص على أن يترك لولده من بعده ثروة تقيه صروف الأيام .. وتعلى قدره بين الناس .

أما هذه الثروة الأخلاقية .. وهذه الفضائل التى أملاها الشرع وزكاها العقل .. فلا تكاد تخطر للوالد على بال !! لأن هذه بضاعة مزجاة .. ليس لها فى "سوق " الحياة مكان !

ثم يجابه الشاب حياته العملية بلا أخلاق ..

أى بلا سلاح !

وتكون النتيجة الطبيعية أن يهزم الشاب فى معركة الحياة .. ولم يهزمه غير أبيه .. الذى جرده من كل سلاح !

ومن هنا .. لم يكن عجيباً ماطلب به مدير التحقيقات الجنائية فى أمريكا .. من معاقبة كل أب يهمل فى تربية أولاده ..

فهذا مطلب حازم حكيم ولاشك .. فدور الأب فى التربية أخطر من دور المدرسة بكثير .. لأن تربيته تتعلق بالنفس .. حيث يغرس فى نفسه أشجار العادات .. ويملأ قلبه وذهنه من أقوال وأفعال مايحدد معالم شخصيته التى

ستلازمه مدى الحياه.

أما دور المدرسة فيلى دور الأب فى الأهمية .. فما هو إلا أن تحشو عقل الطفل بمجموعة من المعلومات والتعريفات ..

ثم تقوم ثانيا برعاية ماكان الأب قد غرسه فى نفسه قبل أن يذهب إليها.

وإذا كانت المدرسة مطالبة بتقديم نماذج صالحة .. تستطيع أن تستفيد وتفيد ..

فأخر بالأب أن يقدم إليها نسلا نظيفاً عفيفاً..

حيث إن الطفل فى يده عجينة رخوة طيعه .. يستطيع أن يصورها إنسانا .. وأن يصورها حيواناً !!

شجر...وبشر

أرأيت إلى الجذر يضرب فى أعماق الأرض باحثا عن الغذاء .. ليدفعه إلى الشجرة حياة ونمواً ؟

أرأيت إليه كيف تقوم عليه حياة غيره .. وهو مخبوء تحت التراب لايرى أحد ذاته .. بينما يرى كل إنسان ثمرة مجهوده ممثلة فى الشجرة الناضرة وثمارها اليانعة ؟!

ذلك مثل بعض الناس فى دنيانا هذه :

إنهم جنود مجهولون .. يعملون فى كفاح مرير. ضار بين حول أعمالهم ستاراً حتى لاتراهم العيون .. ثم يقدمون للمجتمع كل يوم خدمات جلى ومنافع كبرى.

وتتمرغ أنت وأنا فى نعمة صنعتها أيديهم .. ثم لاندرى مصدر هذا النعيم !

ولو أن كل فرد تحول إلى جذر مستور يمد شجرة المجتمع بجرعة حياة لأورقت .. وآتت أكلها كل حين.

ولكننا مع الأسف حراص على أن نحصل على حقوقنا .. ثم لانحس بأن فى أعناقنا واجبات! .. حراص على أن نأكل من شجرة المجتمع أمنا وطمأنينة .. ورجاء وسعة .. ونعتصر من كرومها خمرا حلالا .. ونأوى إلى ظلها الظليل إذا ماأشتد بنا هجير الحادثات ..

ثم ننسى أن هناك جذوراً تمد هذه الشجرة بعصارة الحياة حتى أثمرت هذه النعم التى نحيا فيها ..

نعم ننسى أن هناك جنوداً مجهولين .. غمسوا أشخاصهم فى تراب الكفاح .. وقدموا لنا غذاءنا وكساءنا .. وهم تحت أقدامنا لايشتكون !

وإذا كان بعض الناس تمثلهم الجذور.

فإن آخرين .. كشجرة خبيثة أجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار "

إنهم أشجار لا أصول لها تمسكها إذا ماهزتها الرياح السارية .. وليس لها ورق يكون بقعة من الظل تحجب الأشعة الساخنة عن أجساد القائلين .. ولاثمر هناك يرتجى منها غذاء للآكلين .. ولا حتى نفحة نسيم تهب فتنتعش لها الجسوم الحرى .. تماما كبعض الناس فى حياتنا الدنيا :

هؤلاء الذين لاحسب لهم ولانسب يرفع مركزهم إذا ماتفاخر الناس بأحسابهم وأنسابهم .

وليس من شأن أفواههم أن تنطق بالجملة الحانية فيحس لها المحزون برد السلوى .

وليس لهم فى الحياة عمل صالح يثبت لهم وجودا .. ولكنهم قشة حقيرة تائهة على ظهر الأرض .. لافائدة فيها ولاجدوى منها !

والرسول الكريم يمثل المؤمن بالنخلة :

قال ذات يوم :

أرفه ببال فتى أمس على ثقة ∴ إن الذى قسم الأرزاق يرزقه

فالعرض منه مصون لايدنسه ∴ والوجه منه جديد ليس يخلفه

إن القناعة من يحلل بساحتها ∴ لم يلق فى دهره شيئاً يؤرقه .

إن كوخاً وطيئا تسكن فيه .. ورغيفا قديداً تتبلغ به .. وزوجا صالحة تكابر معك حادثات الزمان .. تحفظك فى غيبتك .. وتطيعك فى أوامرك فى هذا الثالوث البسيط كل ماتنشده من سعادة يعسر أن توجد فى هذا القصر الذى يتشامخ على كوخك الوطئ !

لأن المال الوفير لايدخل بيتا .. إلا قالت له الهموم : خذنا معك!

العمر ساعات تمر ∴ وخطوب أيـام تكر

ولرب حتف ساقه ∴ ذهب وياقوت ودر

فلم إذن تعاتب القدر وتسب الأيام !

إن نعم الله عليك يا أخى عديدة لاتحصى .. ضخمة لاتقابل بمجهود أو عبادة .. ولو غضن وجهك طول السجود .. وقرح أجفانك طول السهر !

ومايصيبك فى حياتك من أزمات .. إنما هو لمس لطيف .. يعيد إلى قلبك الجاحد إيمانه .. وإلى عقلك المضطرب اتزانه .. وربك الذى خلقك لايريد بك العسر .. وما عليك إلى أن تخلع عن ناظرك هذا المنظار الأسود الذى ترى الحياة من خلاله معتمة كالحة .. كن جميلا تر الوجود جميلا .

دقائق مع الوجوديين

فى مصر الشرقية المسلمة .. وفى عصر المدنية المشرقة والحضارة الراكضة.. ينبعث فى الجو الصافى رماد داكن .. أثارته حمير عرجاء .. يركبها أناس من بنى الانسان .. يسمون أنفسهم بالوجوديين !!

ماذا يقولون ؟

إنهم يدعون أن الآله خرافة نسجتها المخيلة الإنسانية ؟!!

ولكن الوجودية فى نظر عقلاء الدنيا ماهى إلا فكرة بلهاء .. مفتق عنها خيال مخمور نقع فى نبيذ رخيص !!

وهاهو ذا أحد أجدادهم الأقدمين ويدعى « أرسطوديموس» وكان ينكر الأله :

قال له سقراط وهو يحاوره :

أفى الناس من تعجبك براعته فى الصنائع ؟ فقال نعم . فقال سقراط: أيهما عندك أرفع شأناً : من يصنع التماثيل العارية عن الحركة والعقل.. أم من يصور الأشباح الحية المتحركة ؟

– من يصنع الصور الحية .. اللهم إلا إذا كانت تلك الصور من عمل المصادفة والاتفاق لامن عمل العقل .

– إذا فرضنا أشياء لايظهر المقصود منها .. وأشياء أخرى بينة القصد والمنفعة .. فما قولك فى تلك الأشياء ؟

ماهى التى عندك من فعل العقل .. وماهى التى عندك من فعل الاتفاق؟

– لاشك أن ماظهر قصده ومنفعته من فعل العقل .

– أولست ترى أن صانع الانسان في أول نشأته .. جعل له آلات الحس لما فى تلك الآلات من المنفعة الظاهرة .. فأعطاه البصر والأذنين ليبصر ويسمع مايكون لعيشه صادقاً .

إن بصرنا معرض للآفات .. أولست ترى كيف اعتنت القدرة الألهية بذلك .. فجعلت الأجفان كالأبواب لتمنع مايصيب البصر .

وجعلت الأهداب كالمناخل لتقيها من أضرار الرياح ؟ وماقولك فى آلة السمع .. وهى تقبل جميع الأصوات ولاتمتلئ أبداً ؟

أما رأيت الحيوانات .. كيف رتبت أسنانها المقدمة وأعدت لقطع الأشياء .. فتلقيها إلى الأضراس فتدقها دقا .. فإذا تأملت فى ترتيب ذلك . أيمكنك أن تشك هل هى من فعل الاتفاق .. أم من فعل العقل ؟

وبلع « أرسطوديموس » ريقه !!

وأخذ يستعرض أفكاره الزائفة .. كما يستعرض المدرس المجهد تلاميذه الخائبين !

ثم قال : نعم .. إذا «تفكرنا» فى ذلك لانشك فى أنها من فعل صانع حكيم .. كثير العناية بمصنوعاته .

والآن .. مطلوب من الوجودين .. أن يكونوا أناساً تفكر .. لاببغاوات تقلد !!

الهادمون بيوتهم

عرفته شيخاً حلو الفكاهة عذب الحديث . وبين شاربه الضخم ولحيته الشهباء المرسلة .. تترقرق ابتسامة حلوة لاينطفئ بريقها أبداً .

من السهل على هذا الرجل أن يحييك فى حرارة دون سابق معرفة .. من السهل عليه أن يقدم إليك معسول القول . حتى لتعتقد أن لك فى قلبه مكاناً فسيحاً .. من السهل عليه كل هذه المظاهر .. مادامت لاتمس « جيبه » من قريب أو بعيد !

ولكن نقطة قاتمة تسود هذه الصفحة التى تبدو أمام الناظر بيضاء مشرقة :

لقد سار به ابليس فى رحلة خلوية على ساحل بحر الحياة .. ثم صدع فى قلبه صدعاً تسللت منه كل معانى الرأفة والحنان .. وتمكن هو من قلبه الخالى .. فوجهه إلى إثارة معركة حامية بينه وبين فلذات أكباده .. تلك المعركة الخاسرة التى تنتهى حتما بهزيمة الفريقين !

إن له ابنا وأربع بنات .. وفى سبيل أن يعيش ابنه من بعده سعيداً .. نراه يبيع كل مايمتلك لابنه بيعاً صورياً .. حتى يقطع على بناته الطريق !

فلا يكون لأحداهن حق فى شئ من متاعه .. وهى ترقد فى أحضان رجل غريب !

وإذا كان الشيخ قد تنكر لمبادئ الانسانية .. وسمح لغرائزه أن تحمل

أسلحة الرغبات المجنونة فتحطم فى نفسه مروءته ورجولته ..

إذا كان قد أبى أن يظل لواء خفاقاً .. وأولاده من تحته جنود متحدون مخلصون .. فكان لابد من أن يجنى ثمار غرسه مرة المذاق !

ولم يكن غريبا أن تتخلص بناته من كل قيد أو عرف .. ثم يخضن أمام والدهن معركة حامية الوطيس .. تتهافت فيها كرامة البيت مثخنة بالجراح .

لهفى على العش الهادى تعربد فيه فئران الطمع فتقوض دعائمه الراسية !

لهفى على الحياة الصافية تحجب شمسها الزاهرة سحابة الجهل .. فتستحيل إلى حياة كابية أشرف منها الموت !

لقد كانت الدار آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان .. كان الأب فرعاً أخضر يحمل لأولاده فوق كاهله ثمرات طيبة يمدها كل يوم بعصارة الحياة .. ولكن اعصار الطمع هز الفرع الأخضر فى عنف .. فتساقطت ثمراته فى وحل الحرص البغيض .. ثم تفاعلت الثمرات مع الوحل المتراكم .. وتحولت إلى دود جائع .. سارت قوافله لتقوض الفرع الأخضر من أساسه .

ثم تصبح الدار كلها فى ضمير التاريخ ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

نظـــرات

من فوق المنبر :

عهدنا بالصحافة فى أعيادها أن تملأ الدنيا من حولها صراخاً..عهدنا بها فى هذه المناسبات أن تدق طبول الدعاية الجوفاء .. مرتدية ثوب غيرها.. مدعية لنفسها ماليس فيها .

ولكن النظرة العجلى إلى جريدتنا « منبر الشرق » ستطلعك على طراز فريد من الصحافة الآملة العاملة .

ولسوف يغيب عنك هذا اللون من الدعاية الرخيصة .. كيف لا .. وهى تحتفل اليوم بعيد ميلادها الخامس والثلاثين .. إنها تودع من عمرها أحقاباً.. حفلت بالجهاد فى سبيل المثل العليا .. ومع ذلك .. فهى تأبى أن ترائى الجماهير بجهاد قامت به فى سبيل العروبة والاسلام .

عشرات السنين خلفها « المنبر » فى غيابات الماضى .. كان فيها نذيراً ينفخ فى الصور ليدفع القطيع التائه إلى حظيرة الأمان .. ومع هذا يأبى إلا أن يتابع مده الزاحف إلى غايته المرموقة .. في عزم المؤمنين .. ووقار الصالحين .. تاركاً للناس أن يتحدثوا عنه .. ولايتحدث هو عن نفسه أبداً .

وإذا كان اللون الأول من الصحافة تمثله سنبلة القمح التى تبدو معربدة مرتفعة القامة .. لأنها فارغة !!

فإن « المنبر » هو تلك السنبلة التى امتلأت بالحَب .. فسكنت

عربدتها .. وخفضت رأسها تواضعاً .. وهذا عين الرفعة والكمال .. فهنيئاً للمنبر عيده الجديد .

وتحية لصاحبه الكريم .. تحية أتمثل فيها « عالى الغاياني » مدافعاً عن الاسلام قديراً .. ولحنا فى سمع العرب شجياً .

ليكون الغنم بالغرم

لكى تملك بيتاً .. لابد من أن تدفع ثمنه أولا .. ولكى تكون رفيع المقام بين الناس لابد وأن تبذل من دمك ودرهمك !

وكذلك الأمر .. إذا أردت أن تكون مجاب الدعاء مقبول الضراعة عند الله .

يجب أن يكون لسانك اللاهج بالدعاء طاهراً ذاكراً .. وأن تكون يدك المبسوطة رفيقة بالعباد .. تعمل الخير ولاتؤذى أحداً ..

ومن العجيب أنك تدعو فى صلاتك :

اللهم لاتفضحنا يوم العرض عليك .. ثم لاتفتأ تعد عيوب غيرك علي رءوس الأشهاد !!

وكان عجيباً أن تروع الآمنين . وتسرق أقوات الناس .. ثم تلح فى الرجاء مطالباً مولاك أن يعصمك من هؤلاء الناس الذين سلبتهم أنت أرزاقهم وقلوبهم !!

وفى هذه الحكمة التالية تلخيص جميل لكل مايجول فى النفس :

مر ابراهيم بن أدهم يوماً بسوق البصرة فاجتمع الناس عليه وقالوا له:

ياأبا إسحاق :

مالنا ندعو فلا يستجاب لنا ؟ فقال لأن قلوبكم ماتت بعشرة أشياء :

ومن هنا كان أثر الدين السحرى فى تربية النفوس .. ومن هنا كان الرسول العظيم خبيراً بطبائع البشر حين قال : فاظفر بذات الدين تربت يداك .

من مآثر عمر

بالأمس القريب .. كانت الحزبية العمياء تأخذ مجراها العميق بين صفوف الشعب .. فحارب الأخ أخاه .. وعق الولد أباه .. كنت تفتح عينيك صباح مساء .. فترى وتسمع صيحات ككديد الرحى :

الاحتلال على يد فلان .. خير من الاستقلال على يد علان !

وناهيك بمسرح الانتخابات في الماضى والروايات التى مثلت عليه .. والدم المسفوح يخضب الثرى الطيب .. يشكو ظلم الانسان إلى خالق الانسان.

حتى جاءت ثورتنا القوية .. فتكسرت على أسنتها أحزاب اتخذت لها من بيوت العنكبوت قوة .. ومن عمر الزهرة بقاء !

ولم يكن القوامون على ثورتنا بدعا من القواد عندما ألغوا الأحزاب .. فالتاريخ يشهد أنهم كانوا فى وثبتهم هذه مقسطين .

فقد لاحظ عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن بعض زعماء قريش يحاول أن يسافر ليستقر فى الأرض الجديدة التى فتحها جنود الاسلام .. فمنعهم عمر من السفر إلا بإذنه .. على أن يكون مقامهم هناك إلى أجل محدود .

ذلك .. لأن بعضهم قد يميل إلى اصطناع الجاه والرئاسة .. فلو أنهم ذهبوا إلى تلك البلاد واشتروا أرض الخراج .. لوقع بينهم التنازع وانحاز

إلى كل زعيم منهم طائفة من الناس !

ومن هنا تتعدد الأحزاب .. فتتعدد الآراء .. فيتساقط بناء الأمة حجرا حجراً !!

وأيضاً .. لما وجد أندية السمر قد تعددت في المدينة .. وتنوعت المجالس في دور الزعماء .. نراه يصدر أمراً عسكرياً بتحريم هذه الاجتماعات الخاصة .. وليكن الاجتماع عاماً في المسجد أو في منتدى يغشاه كل الناس ..

ونجح عمر الحكيم في أن يئد الحزبية في مهدها .. وبدت الدولة أمام العالم وحده متماسكة الأجزاء .

ســذاجــه

رفع يديه إلى السماء داعياً : لئن شفانى الله من مرضى .. فسوف أقدم لأهل الله هدية فى كل عام .

واستجابت السماء لدعائه .. فبرّ بوعده هو الآخر .. وفى مطلع كل عام.. يذهب إلى القاهرة ليوزع على باب المسجد الزينبى عدداً من الأرغفة المحشوة فولاً .

وشاء الله ألا يرد عليه المرض فى العام التالى .

ثم قيل له يوماً : خير لك أن تتصدق بثمن الأرغفة على فقراء بلدك .. فهم أولى الناس بعطفك وبرك .. ولن يؤثر ذلك فى وفائك للنذر .

ولم يكد صاحبنا يستمع إلي هذه النصيحة ويعمل بها .. حتى فاجأه المرض فى نفس العام !!

عند ذلك .. أيقن فى قرارة نفسه .. أن التصدق بثمن الأرغفة لم يؤت ثمرته المرجوة ولابد من الذهاب مرة ثانية إلى القاهرة.. ليوزع الأرغفة المحشوة فولاً .. أمام المسجد الزينبى !! وقد فعل !

وهذا فى عرف الشرع والعقل شذوذ فى الرأى ونشاز فى التفكير .. لأن النذر مهما عظم فلن يغير من قدر الله شيئاً .. وقد نهي عنه الرسول عليه الصلاة والسلام .. لأن الناذر إنما يقدم نذره فى مقابل شفاء مريض . أو قضاء حاجة مثلاً .. وهذا بالطبع صنيع التجار .. وليس من خلق المؤمنين

الذين يمحضون عبادتهم لله تعالى .. دون نظر إلى جزاء دنيوى أو أخروى .
وقد أشار الرسول الكريم إلى أن النذر إنما هو حيلة أجازها الشارع ليستخرج بها المال من جيب البخيل .. الذى لايخرج شيئاً من ماله إلا فى مقابل قضاء حاجة من حوائج الدنيا .. وخير للمسلم أن يكون كريماً مع الله.. أكرم الاكرمين .

لغة القلوب

تحب إنساناً .. فتتوارى عنك عيوبه .. ويبدو أمامك ثوباً ناصعاً لاشية فيه .

كل قضية يقررها .. وكل جملة ينطق بها .. فهى الحق المبين .. الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه !

ثم تكره آخر فتتجسم عيوبه وتتضاعف أمام تقديرك .. حتى ليبدو أمامك قطعة من الخطأ تزرع الطريق جيئة وذهاباً .. وكل جملة ينطق بها .. وكل جملة يقولها .. فهى فى سمعك نقيق بغيض .. ومن ثم فقد كان الخطأ حليفك فى الحالتين .. لأنك نظرت إلى الشخص من خلال علاقتك معه .. وفى حدود مصلحتك أنت شخصياً .. مثل ربان السفينة الذى يسب المطر .. ثم ينسى أن هناك فى قلب الصحراء قلوباً تصفق فرحاً .. لنفس هذا المطر !

ولقد أصيب الاسلام فى تطوره التاريخى بأناس من هذا النوع الذي يحكم قلبه ويلغى عقله .. يعرفون الحق بالرجال .. لا الرجال بالحق .

ولقد كانوا أصدقاء جاهلين .. جنوا على الاسلام من حيث أرادوا له نفعاً !

وفى هذا الصنف يقول الامام الغزالى :

« فمهما نسبت الكلام وأسندته إلى قائل حسن فيه اعتقادهم .. قبلوه وإن كان باطلاً .. وإن أسندته إلى من ساء فيه اعتقادهم ردوه وإن ان حقاً .

فأبدا يعرفون الحق بالرجال .. ولايعرفون الرجال بالحق .. وهو غاية الضلال »

ولكن الوضع الصائب .. الذى يجب أن تلتزمه .. أنا وأنت والآخرون .. يتركز فى حكمة على رضى الله عنه :

« لاتعرف الحق بالرجال .. بل اعرف الحق .. تعرف أهله »

عصافير الجنة

مات صبى من الأنصار فقالت عائشة رضى الله عنها :

طوبى له .. عصفور من عصافير الجنة .. لم يعمل السوء ولم يدركه .. وبالأمس .. طار من عش جارنا عصفور وليد .. لقد تبسم عنه المهد طفلا وضاح المحيا .. ساحر القسمات .. وفى غمرة البهجة الشاملة التى رفعت لواءها على البيت الصغير .. امتدت يد القدر لتقتطف هذه الوردة الناضرة .. امتدت .. لتلتقط جوهرة لألاءة .. ممن بين أحضان أمها .. هكذا .. بلاعودة .. وبلا وداع !

قال صاحبى :

مسكين هذا الرجل .. كلما رزق ولدا لم يستمتع به عاماً كاملاً .. وسرعان مايودعه التراب أسفاً .

قلت لصاحبى :

بل قل : كم هو سعيد ذلك الرجل !

لأن هذه الفلذات التى يدفنها كل عام .. إنما يدفن معها ذنوبه وآثامه..

إنها كنوز غالية الثمن يدخرها ليوم يجعل الولدان شيباً .. « يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه » سيجدهم هناك مصابيح وضاءة .. يسير فى ضوئها الغامرإلى حيث يسكنون فى غرف من فوقها غرف تجرى من تحتها الأنهار .

والرسول عليه السلام يسأل أصحابه يوماً :

ماتعدون الرقوب فيكم ؟ قالوا : الذى لايولد له .

قال : ليس ذلك بالرقوب .. ولكنه الرجل الذى لم يقدم من ولده شيئاً .

أى أن الرقوب فى عرفكم وتقديركم هو الحزين الذى لايعيش له ولد .. ولايحظى بمتعة *الأولاد . وليس هو كذلك فى عرف الشرع .. بل الرقوب الذى* يستحق الرثاء شرعاً .. هو الرجل الذى يتمتع بأولاده من غير أن يفقد منهم *أحدا ../ ولم يتشرف بأن يودع أحدهم التراب .. ليكون له يوم القيامة* شفيعاً !! وهذه بشرى طيبة .. أقدمها إليكم أيها الآباء المحزونون .. لتورق فى صحراء قلوبكم أشجار الأمل من جديد .

سحر القرية

في القرية سحر وفيها جمال . وكلما شاء الحظ السعيد أن أقضى بين ربوعها وقتاً .. أحس بنشوة المهاجر يعود إلى وطنه .. وبسرور العصفور وقد رجع إلى عشه الأثير .

وأنعم بالريف الحبيب ملهما .. إنه قصيدة الشاعر .. ولوحة الفنان .. ولحن الموسيقى .. وكتاب الفيلسوف .

وعند مجتمع ماء أو مشتبك رياض .. كان يجلس الفيلسوف «الفارابى» ثم يسرح الطرف النافذ على صفحة الطبيعة المبسوطة أمامه فى وقار ..

ومن وحي هذه الطبيعة الآسرة .. صنع الفارابى آلة موسيقية عجيبة الشأن .. عزف عليها فى مجلس من المجالس فأضحك الحاضرين .. وعزف عليها ثانية فأبكاهم : .. ثم عزف اللحن الثالث .. فإذا بالحاضرين جميعاً يستغرقون فى النوم !!

أقول هذا لصديق يلومنى .. لأنى لا أكتب كلمة إلا ويرى فيها شجرة أو نهراً أو عصفواً .

ولكنى سأظل أحب القرية أبداً .. سأظل دائماً عصفوراً يحلق فوق أغصانها .. شادياً بجمالها .. لأننى أعتقد أن هذا من مظاهر حبى لوطنى .. وحب الوطن من الايمان .

إيمـــان الطبيـب

عندمـا يطلع الطبـيب على دقـائق صنع الله فى جسم الإنســان .. ويتكشف أمام ناظره هذا النظام العجيب البديع .. نجد الايمان وقد استقر فى قلبـه استـقرارا لاتزعزعـه أعـاصيـر الشك .. ذلك لأنه إيمان قـام على التجربة والبحث والنظر .

وليس هو إيماناً تقليـدياً جاء هكذا بالتلقين . ولايتـمتـع بالثبـات الذي يتميز به إيمان الطبيب العملى .

وقد أسعدنى الحظ أن ألتقى بطبيب مؤمن ماهر يمثل هذا الصنف النادر من الأطباء .

وبين ابتسامته الوضاءة .. وحديثه الآسر .. ومبضعه الساحر .. ذابت آلامى .. وتبخرت موجة من التشاؤم خيمت علىّ زمنا طويلاً .

ولست أريد تزكيته بهذه العجالة . لأنه يعمل الخير للخير .. وليس فى انتظار تزكيـة أحـد .. ولكنى أريد أن أقـدم إلى القراء نموذج الطبيب كما يجب أن يكون : إيمان بالله وتوكل عليه .. وإخلاص فى المهنة لايرتبط بالمادة أبداً ..

وقد وجدت كل هذه الصفات مجتمعة فى النطاسى المؤمن .. الدكتور سليمان محمد محفوظ / جراح الفم والأسنان .

التسول فن

طالعتنا الصحف بخبر مؤداه أن أحد الذين يحترفون التسول قد ضبط ومعه أكثر من مائة جنيه !

وهذا مثل واضح يشير إلى أن بعض الناس يستجدى أكف غيره .. لا ليسد خلة الجوع .. أو يطفئ جذوة الظمأ .. ولكنه يسلك هذا السبيل معتقداً أنه خير وسيلة لجمع أكبر ثروة بلا جهد .. ومن أيسر طريق .

وقد رأيت مرة منظراً غريباً :

رأيت شاباً أنيق المظهر . ينزوى فى ركن مظلم فيخلع ملابسه الأنيقة ويضعها فى سلة معه .. ثم استخرج ثوبا مهلهلاً ارتداه .. ثم غطى عينية بمنديل حقير .. وسار فى الطريق يمثل دور فقير .. أعور أعرج !! حتى يستدر العطف من القلوب .. والنقود من الجيوب !

ورأيت أمامى رجولة تتساقط على قارعة الطريق .. رأيت ضميراً ميتاً يعاف أخس الحيوانات أن يكون صاحبه .. قولوا معى :

إن التسول فن !

يهودي أم فدائي

تعجبت إذ قرأت نبأ « مصرع زعيم الفدائيين اليهود »!؟

وسألت نفسي : هل في اسرائيل فدائيون حقاً ؟!

ووجدت الجواب بالنفي حاسما بين دفتي المصحف الكريم : « لايقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر .. بأسهم بينهم شديد . تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى »

فليس في اليهود فدائي .. ولا حتى ظل فدائي !

أما هؤلاء الذين التقينا بهم في فلسطين .. فلم يكونوا يهوداً .. ولكنا كنا أمام انجلترا .. وأمريكا .. وفرنسا !!

شيئاً من الحياء .. يافرنسا !

قد يتملكك العجب .. وتستولي عليك الدهشة .. عندما تعلم أن في فرنسا جمعية لحماية أرواح .. العصافير !!

لقد نسي الفرنسيون أن هناك شيئاً .. اسمه مراكش .. تباد فيه كل يوم مئات من بني الإنسان ..

أم أن هذه المئات الصريعة لاتساوي جناح عصفور فرنسي ؟!!

علي مسرح القرية

وسار بنا « أفلاطون » في عالم المثل على جناحين من خياله الرائع ..
واشتد بي الحنين إلى أهلي في وطني الصغير .. وعلى دقات الفأس الكادحة
صحوت من حلمي الجميل مع أفلاطون ! وصافحت سمعي من جديد أصداء
القرية الوادعة .. وملأت ناظري سنادسها الخضر .. وأشجارها الفارعة ..
وسماؤها الزهراء .. كأنما غسلتها الملائكة بالليل !

وهتفت من أعماقي :

ماشروق الشمس ولاغروبها بأجمل منك ياقريتي !

ثم اتخذت مكاني الأثير .. تحت الصفصافة الغنياء .. على ضفة النهر
الحبيب ..

وعلى رفيف أهدابها المسبلة طفق صديقي الفلاح يسرد قصته .. هذا
الفنان .. الذي يمسك في يده ريشة عبقرية .. ثم يصنع لنا لوحات رائعة
فاتنة لاتطمس الشمس معالمها أبداً .. لوحات لاتسر الناظرين فقط .. ولكنها
تشبع الآكلين أيضاً ! وفي هذا العام كان صديقي الفلاح يزرع أفدنة ثلاثة..
يدفع إيجارها للمالك ثمانين جنيهاً سنوياً .. وهو يعتمد كغيره من الفلاحين
على القطن كمعين يغترف من فيضه مايقضي به حاجاته المتشعبة .

ولكن ثمن القطن نقص عن مقدار ماسيدفعه من إيجار .. وكأن كفاح
الليل وكدح النهار ذهب مع الرياح هباء !

وودت أن لو كان فى استطاعتى أن أسكب فى عقله الفائر قطرة ماء بارد تطفئ حرارته الساعرة .. أو أن أدخل إلى قلبه المظلم شعاعاً من الطمأنينة .. حتى تنزاح عن صدره خفافيش هم لحوح : وفجأة .. ارتسمت على صفحة الذهن حكمة بالغة صاغها « إقبال » الشاعر :

مضى فلاح يوماً إلى صاحب الأرض التى يزرعها وقال له :

هذه الأرض التى أزرعها هى أرضى .. وهى لاتعرف سواى ! أنا الذى أسقيها وأحرثها .. وعرقى يتصبب به جبينى .. ويسقط عليها ليحييها.

أما أنت .. ففى بيتك لاتزورها .. ولاتعمل فيها بفأسك .. فكيف تكون مالكها ؟!

قال المالك معتزاً : إنها أرضى أيها المسكين ! .. وعندى وثائق تثبت ذلك .. قال الفلاح :

ماشأن وثائق كتبت بالحبر .. بهذه الطبيعة التى أكتب على صفحتها صباحاً ومساءً ؟!

واحتدم النقاش بينهما .. فذهبا إلى الأرض لتكون حكماً بينهما .. وعرضا عليها النزاع .. وانتظرا ماتقوله بشأن ملكيتهما لها .. فقالت الأرض:

لاأعرف من هو مالك هذه الأرض .. أما الذى أعرفه .. فهو أن كلا منكما مصيره إلى الأرض !!

وهب رفيقى الفلاح صائحاً ! مرحبا بك ياأمى الرءوم ! مرحباً بك أيتها الأم الرءوم .. مرحباً بك أيتهاالأرض يوم تضمين جسدى بين ذراعيك..

أنا واثق أننى سأكون بين أحضانك مكرماً .. لأنى أنا الذى رويتك وتعهدتك .. ومستحيل أن تسوى بين ابن كان بك حفياً .. وبين آخر لم يزرك فى العمر مرة !!

رجــل..وعقيـدة

تتركب طبيعة الانسان من غرائز وميول .. بالإضافة إلى العقل .. ولكل غريزة من تلك الغرائز هدفها الخاص . التى تعمل جادة لتحقيقه .. دون مراعاة لمصالح أخواتها .. ومن ثم فمن العسير عليها قيادة الانسان إلى غاية حميدة .

والعقل أيضاً لايمكنه فى كل الحالات أن يتحكم بمثله العليا فى تلك القوى الناشزة .. لأنه عرضة للاصطباغ بهوى صاحبه .

وحيث عجزت الغرائز .. وعجز العقل عن تنظيم حياة الانسان . والسير به نحو غاية شريفة تحقق سعادته دنيا وآخره .. فقد تحتم وجود قوة عليا .. تقبض الزمام فى حزم .. حتى توجد التوازن بين العقل .. وهذه الميول الفطرية المتمردة .. وكذلك كان العرب قبل البعثة .. كانوا قطيعاً شارداً .. فى بيداء مظلمة شاسعة .. لايدرى أمشرق هو أم مغرب .

كانت هناك مجموعة من الغرائز المجنونة .. التى حولت الحياة فى الجزيرة العربية إلى جحيم لايطاق .

وكانت هناك أيضاً عقول كستها الخرافة أبهى حللها !! فجاء محمد عليه الصلاة والسلام يمثل القوة العليا .. جاء ليقود البشرية بعقيدة كاملة شاملة .. تتفق وحاجات البشرية التى تعددت .. وتجاريبها التى تنوعت .

وبهذه العقيدة وحدها أمكن جمع أشلائهم بعد تفرق .. وائتلافهم بعد

اختلاف رددت أصداءه جنبات الوادى . لأن العرب وجدوا في تلك الرسالة الجديدة إشباعاً لرغبات نفسية كانت تعتلج فى صدورهم .. وتحقيقاً لرؤى طالما تمثلت على لوحة أذهانهم .

ومتى كان فى العقيدة إشباع رغبات النفس . وإنجاز حاجاتها .. دفعت بيدها السحرية معتنقيها إلى مواطن الرجولة .

فأوجدت الشهداء والمصلحين . وقد صنعت العقيدة الاسلامية من تلك الأصناف رجالا يملأون اليوم صفحات التاريخ أريجاً وعطراً ..

وقد صدق الفيلسوف الانجليزى « كارلايل » إذ يقول :

« أرأيت إن ادعى لك رجل بأنه بناء .. أكنت تطلب إليه دليلاً على صدقه أكثر من أن ينبى لك شيئاً يوجب عليك التسليم له بهذا الوصف ؟

فما ظنك لوشيد لك بناء يسع مائتى مليون من النسمات .. ويبقى مابناه سليما من العطب قرونا كثيرة ؟

فهذا محمد قد أعلن الناس أنه بنى .. وأتى لهم بدين دخل فيه نحو مائتى مليون منهم .. وبقى إلى عهدنا هذا قوى الدعائم .. ركين الأركان .. وأهله أشد تمسكاً بحباله من أهل أى دين كان لدينهم »

ونحن إذ نحتفل اليوم بذكرى « ميلاد » محمد عليه السلام .. لنبين للناس أن محمداً لم يمت .. ولن يموت .. بل هو أبدا حى فى ضمائرنا .. باق فى أخلادنا .. وليس هناك شئ اسمه الموت .. يستطيع أن يذهب به بعيدا عنا .

بل ستظل مبادئه قبسا وهاجاً يضى للمدلجين معالم الطريق .

الأزهر المظلوم

فى أمريكا تقليد عجيب .. فبعد أن يتم الطالب دراسته فى معهد من المعاهد .. ثم يدخل عمار الحياة العملية وينجح فى عمله .. يدفعه عرفان الجميل إلى أن يقدم لمعهده هذا الذى كونه جزءاً من ثروته .

حتى أن طالبا بجامعة « كولومبيا » بعد أن صار ذا مال .. نراه وقد تبرع لجامعته التى تخرج فيها بنحو ١٤ ميلون جنيه مصرى !!

وإنى لأسرح بصرى فى رحلة خاطفة إلى خريجى جامعاتنا المصرية.. فلا أجد شاباً واحداً وقف مثل هذا الموقف المشرف .. ويعود إلى البصر وهو حسير !

ولئن كان لخريجى الجامعة بعض العذر فى تقصيرهم .. لأنهم يدفعون أثناء الدراسة ثمن الكتب .. وأشياء أخرى .. أى أنهم لايتعلمون بالمجان .

فما هو عذر خريجى جامعتنا الأزهرية .. والحال أنهم كانوا يأخذون كتبه ونقوده ؟!

بل إن نكران الجميل بلغ ببعض الاساتذة حدا جعلهم يؤلفون فيما بينهم محكمة أزهرية .. عقدت جلستها فى إحدى دور الصحف ..

اجتمعت لا لتحاكم مجرما تاجر بالدين وشوه تعاليمه .. ولالتحاكم مغنية تتأوه فى ألحانها تأوها معيباً يدفع الشباب الظامئ إلى لقاء الشيطان!

ولا لتؤاخذ طالبا في الأزهر ترك الصلاة

إنها لم تجتمع لمثل هذا .. ولكنها اجتمعت لتقرر في نهاية الجلسة أن العمامة « لم تعد تمشى مع القرن العشرين » عصر المدنية والحضارة !!

ومن ثم .. يجب أن تعدم .. فلم يعد لها بين الصفوف مكان !.. العمامة ؟!

اللباس الوحيد الذى لايرتديه الشيطان .. ورمز الإسلام الباقى فى زحمة المدنية الوافدة .. من الذى يطالب بإلغائها ؟

إنهم ازهريون .. رباهم الأزهر .. ولحم أكتافهم من خيراته !

****

ثم إن الطالب الذى تخرجه المعاهد الدينية ليدخل «دار العلوم »مثلاً . ثم يعلق الشارة الجامعية على صدره .. نجده يضع أنفه فى السماء .. عندما يقابل زميله الذي كان يجلس معه بالأمس قائلا فى غطرسة مفتعلة :

« سيبك ياشيخ .. بلاش أمور طربية » !!

وثالثة الأثافى ماقرأته لأحد خريجى دار العلوم - وهو أزهرى - يطالب بإغلاق كلية دار العلوم أمام خريجى معاهد الأزهر ! ووجدت نفسى أردد فى أسى مرير قول شاعرنا العربى :

أعلمه الرماية كل يوم ∴ فلما اشتد ساعده رمانى

وكم علمته نظم القوافى ∴ فلما قال قافية هجانى

وراء السطـــور

أحسست بالبهجة تسرى فى دمى .. ولست نشوة الانتصار تهز كيانى هزاً .. عندما قرأت فى إحدى الصحف نبأ تلك الاحتجاجات التى صدرت من بعض شباب الجامعة المثقف .. يطلبون فيها أن تتفرغ الطالبة الجامعية لدروسها .. بعيدة عن كل مايخدش الكرامة الجامعية .. ويحط من قيمة العلم .

وظهر لنا نحن الأزهريين إلى أى حد كانوا أغرارا هؤلاء الذين كانوا يقولون لنا :

ليس لكم ياطلبة الأزهر أن تحكموا على الاختلاط فى الجامعة .. لأنكم لم تجربوا .. فإن الغرائز لتضع أوزارها إزاء هذا الاختلاط الهادف الودود !

ماذا قرأت ؟

قال طالب : إنه لايفهم ولايهضم منظر طالب وطالبة .. يقفان فى خلوة .. بعيداً عن الطلبة يتحدثان همساً .. ويطول حديثهما ساعات .. وقد يحين موعد المحاضرة والحديث ذو شجون .. فيفضلان الحديث على المحاضرة !

ويقول آخر :

إن أحمر الشفاه .. والملابس الضيقة الزاهية .. كل هذا يجب أن تنساه الطالبة خارج أسوار الجامعة قبل دخولها .. فالجامعة ليست مسرحاً ولا ملهى .. ولكنها مكان مقدس معد لتلقى دروس العلم .

وثالث يقول :

إنه يعرف طلبة يستذكرون دروسهم مع طالبات فى منازلهن .. والمذاكرة تمتد بطبيعتها إلى ساعات متأخرة من الليل ؟!

ويرى هذا النوع من اللقاء فى مقام الخلوة الصحيحة التى يحرمها الشرع . ولاشك أن كل غيور على دينه .. ليهتز فرحاً إذ يسمع تلك الصيحات الرشيدة تنبعث من تحت القبة السامقة .. ليعلم الناس أن فى الجامعة شباباً تواقاً إلى الخير .. ولكنه فقط يحتاج إلى التوجيه السديد .. والقدوة الطيبة.. التى تستطيع أن تستخدم تلك الخامات الصالحة فى بناء مستقبل أفضل.. ومع الأسف الشديد .. كثيراً ماتضل تلك النداءات العاقلة فى صحراء الاستهار !

بقى أن تعرف ياقارئى بماذا أجيب هؤلاء الطلبة الراشدون .. من قبل محرر صفحة الجامعات .

قال بالحرف الواحد :

« وأنا أحب للطلبة أن يتغاضوا عن هذه الأمثلة القليلة وأن يهتموا برسالتهم العلمية .. ويتركوا الطالبات وشأنهن »

أى أن السيد المحرر .. يعترف بأن فى هذه المظاهر مايخدش كرامة الجامعة .. ولكنه يتودد إلى الطلبة .. راجياً منهم أن يتناسوا هذه الأشياء التافهة علشان خاطره !

ولقد جانبه الصواب طبعاً .. وأثبت أنه ليس فى درجة من الحنكة والتجربة .. تؤهله إلى أن يقف موقف الناصح الأمين !

فعلى فرض أن هذه حوادث قليلة كما يزعم .. إلا أن هذه القلة لاتصلح شفيعاً أبداً .

وقليل النار غير قليل !

إن فرداً واحداً يسرق رغيفاً .. سوف يسئ إلى كرامة مئات من أقاربه .

وقرية واحدة .. ترتكب جريمة حقيرة .. تشين المركز كله ! فمابالك بالجامعة ... هذا الثوب الأبيض .. الذى يجسم النقطة السوداء ؟!

ثم .. إذا كانت هذه الظواهر تسئ إلى كرامة الجامعة .. أليس من صميم رسالة هؤلاء الطلبة محاربتها ؟!

أليس من صميم رسالتهم أن يقفوا على أقدامهم .. مطالبين بحفظ كرامة العلم .. وشرف المعهد الذى ينتسبون إليه ؟

أم أن المسألة فقط شهادات تعطى .. ورواتب تقبض ..

من وحى التأميم

سئل « أندريه مورا » عن أبلغ درس علمته إياه الحياة قال :« إن أول درس أنه لاشئ نهائى على الاطلاق . فإن المشكلة التى قد يتراءى لنا فى وقت ما أن حلها مستحيل .. يأتى عليها الزمن فلايبقى منها سوى ذكرى ضعيفة »

وهذا هو نفس الدرس الذي علمتنا إياه ثورتنا الهادفة .. يوم أن بزغت شمسها الضاحية فى ٢٣ يوليو .

فلم يكن يخطر ببالنا أن هناك قوة مهما عظمت تستطيع أن تقتلع ملكا كفاروق الطاغية ..

ولكن ثورتنا القوية رمته فى عرض البحر مذءوماً مدحوراً . ولم يكن يتراءى على صفحة أذهاننا أن هذا الحشد الانجليزى الرابض على ضفة القنال .. سيحمل متاعه يوماً إلى غير رجعه .. وذات يوم .. صحونا على دقات الحقيقة الباهرة .. صحونا على هدير آخر سفينة بريطانية تحمل آخر جندى بريطانى !!

ومن منا كان يخطر على باله أن شركة قناة السويس .. ستكون لنا ؟! وفى يوم مشرق أغر .. يقف زعيمنا الشاب .. جمال عبد الناصر .. فيعلن فى سمع الزمان : أن القناة أصبحت لنا .. نحن الذين حفرناها بأظافرنا !

وإزاء هذه الوثبة الكبرى .. وجدنا الدول الاستعمارية العتيقة تتنكر

لأبسط مبادئ الذوق والانسانية .. فتسب وتلعن .. وترغد وتزيد !

ووجدنا وزراء خارجيتها .. يخلعون أردية الذوق والمجاملة .. وهو الثوب اللائق برجال ينضمون للسلك السياسى .. ثم يسمحون لألسنتهم أن ترمى مصر وزعيمها بألفاظ .. أقل ماتوصف به .. أنها صرخات محمومة بدائية .. توحى بها عقول صغيرة تعيش فى القرون الوسطى !!

ثم تتوج هذه المسرحية الصبيانية بإعلان تجميد الأموال المصرية فى الخارج .. وألقاء الأوامر بتحرك الأساطيل المدججة عبر القنال !؟

وتذكرنى كل هذه المظاهر الشائنة بصورتين :

الأولى :

صورة مجلس بأحدى مدن الولايات الأمريكية الجنوبية .. يجمع مبلغاً من المال من الزنوج والبيض لتحسين المدارس فى المدينة .

وعند التنفيذ .. قرر المجلس تحويل كل المبلغ لتحسين مدارس البيض فقط دون الزنوج .

فسأل أحد الأعضاء الزنوج زملاءه البيض قائلاً :

هل تعنون بدفع كل المبلغ لمدارس البيض كى تخرج شباباً مهذباً ؟

فأجاب الأعضاء : نعم

فقال : حسناً .. لأننا نحن السود ينقصنا إلا أن يكون شبابكم

مهذباً !!

ونحن نلقى نفس هذا السؤال فى مسامع البيض فى انجلترا وأمريكا وفرنسا .. قائلين لهم :

إذا كانت هذه الأموال المصادرة ستخلق منكم أناساً مهذبين .. محترمين .

فنحن نطمئنكم أننا فى غنى عنها .. والعالم كله لاينقصه إلا أن تكونوا مهذبين محترمين !!

الصورة الثانية :

صورة العرب الجاهليين فى جدالهم مع محمد عليه الصلاة والسلام :

لقد كان يأتيهم بالحجة تلو الحجة .. والبرهان يسابق البرهان .. على أنه رسول يردد صوت السماء .. وأنهم على الباطل فيما يعتقدون ..

وأن ماجاءهم به من مبادئ وقوانين .. هو وحده البلسم الشافى لأدوائهم المزمنة .. وحينما تلزمهم الحجة .. ويأخذ الحق بخناقهم .. ويتبينوا وقاحة ألفاظهم وتفاهة آرائهم .. نراهم يتقمصون عقلية الصبيان فيقولون له :

ماحكاه القرآن : « لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتى بالله والملائكة قبيلاً أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء » !!

- وكل مدرك لهذا المعنى .. يعلم جيداً أن التاريخ يعيد نفسه اليوم .. وكما انتصر محمد عليه الصلاة والسلام وعلنت كلمته .. واندحر الباطل وحبطت دعوته .. سننتصر نحن أيضا ..

لأننا مؤمنون بقضيتنا .. عاملون على أن ترف راية السلام فوق ربوع الدنيا .. والله سبحانه يتولى المؤمنين العاملين .. وإذا كنا ذات يوم وردة تنشر على الناس عطر المحبة والسلام .

فقد بقى أن يعلم الناس أن هذه الوردة التى تنشر العطر حينا .. لها شوك يحميها .

مع رائد المفسرين

جاء فى مقال للشاعر الكبير الاستاذ على الجندى :

« كان ابن عباس يقول : إذا قرأتم شيئاً من كتاب الله فلم تعرفوه .. فاطلبوه فى أشعار العرب . فإن الشعر ديوان العرب .. وكان إذا سئل عن شئ من القرآن أنشد فيه شعراً »

وقد ذكرنى هذا القول بمجلس كان يجلسه ابن عباس بفناء الكعبة وحوله الناس يسألونه عن تفسير كتاب الله .

فقال نافع بن الأزرق لنجدة بن عويمر :

قم بنا إلى هذا الذى يجترئ على تفسير القرآن بما لا علم له به . فقاما إليه فقالا :

إنا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله فتفسرها لنا وتأتينا بمصادقة من كلام العرب . فإن الله تعالي إنما أنزل القرآن بلسان عربى مبين.

فقال ابن عباس : سلانى عما بدا لكما .

فقال نافع : أخبرنى عن قول الله تعالى { عن اليمين وعن الشمال} عزين قال العزون حلق الرفاق » قال وهل تعرف العرب ذلك ؟

قال نعم أما سمعت عبيد بن الأبرص وهو يقول :

فجاءوا يهرعون إليه حتى ∴ يكونوا حول منبره عزينا

قال أخبرنى عن قوله تعالى ﴿ وابتغوا إليه الوسيلة ﴾ قال الوسيلة الحاجة . قال وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال نعم .. أما سمعت عنترة وهو يقول :

إن الرجال لهم إليك وسيلة ∴ أن يأخذوك تكحلى وتخضبى

قال أخبرنى عن قوله : « شرعة ومنهاجاً . قال الشرعة الدين والمنهاج الطريق .. أما سمعت أبا سفيان بن الحارث وهو يقول :

وقد نطق المأمون بالصدق والهوى ∴ وبين للإسلام دينا ومنهجاً

قال أخبرنى عن قوله : ﴿ إذا أثمر وينعه ﴾ قال نضجه وبلاغه .

أما سمعت قول الشاعر :

إذا مامشت وسط النساء تأودت ∴ كما اهتز غصن ناعم النبت يانع

قال أخبرنى عن قول « وريشا » قال الريش المال . قال الشاعر:

فرشنى بخير طال ما قد بريتنى ∴ وخير الموالى من يريش ولايبرى

ويلح نافع بن الأزرق فى السؤال فيجد ابن عباس بحراً زاخراً .. لن يصل إلى آخره مهما خاض فى وسبح !!

ومما يزيدنا إيماناً بسعة أفقه وحدة بصيرته فى ميدان التفيسر قول أبى وائل :

قرأ بن عباس سورة النور فجعل يفسرها .. فجعل رجل يقول : لو

سمعته الديلم لأسلمت !

وقد كان رضى الله عنه جريئاً فى تفسير الكتاب الكريم .. مما دعا بعض الصحابة إلى أن يقف من آرائه موقف الحذر المتحفظ !

بيد أنها كانت جرأة محمودة .. يوحى بها عقل واع وقلب كبير .

ومن ثم .. فقد انتجت آراء حرة ناضجة لايزال جل علمائنا عالة عليها حتى كتابة هذه السطور !

ذات يوم جاء رجل يسأل عبد الله بد عمر عن قوله تعالى « كانتا رتقاً ففتقناهما » فقال : اذهب إلى هذا الشيخ فسله ثم تعال فأخبرنى .. فذهب الرجل إلى ابن عباس فسأله فقال : كانت السموات رتقاء لاتمطر . والأرض رتقاء لاتنبت . ففتق هذه بالمطر وهذه بالنبات . فلما علم ابن عمر بما قاله ابن عباس قال : لقد أوتى ابن عباس علماً صدقاً . لقد كنت أقول مايعجبنى جرأة ابن عباس على تفسير القرآن .. فالآن قد علمت أنه قد أوتى علماً - رحم الله ابن عباس وطيب ثراه .

أكباد غليظة

فى أقصى القرية يقوم بيت صغير .. وبين جدرانه القديمة الرطبة تقبع أم تندب وحيدها .. وزوج تبكى عائلها .. وأطفال زغب الحواصل يسألون فى لهفة عن أبيهم الغائب .. فيلتقون بالجواب التقليدى :

لقد ذهب إلى مصر ليأتيهم بالحلوى !

وعلي قيد خطوات من البيت الحزين .. نلتقى بفناء واسع .. يجلس على قارعته شاب وسيم تخضب يده الحناء ..

إنه عروس اليوم .. تلتف حوله جماهير الناس مصفقين مهللين على أنغام مرحة ينطلق بها مزمار طويل .. هناك فى البيت الحزين أنات وضراعات .. هناك دموع حرى .. تكاد لحرارتها لتشق أديم الخدود .. هنا فى الفناء الكبير .. تتعانق الصيحات .. وتنفلت الأغاريد المجلوة .. فتهتز لها الخناصر .. وتلعب الرءوس .. ويبنى الخيال الطليق فى أدمغة الشباب قصور الأمانى والأحلام .

هناك فى البيت الحزين .. يغرق أهله الثكالى فى بحر من الدموع إلى أذقانهم .. وبدل أن يشرب كل واحد منا جرعة من ذلك البحر الكبير .. حتى تستبين رءوسهم الغرقى من خلال الموج .. فيتنسموا ريح الطمأنينة والأمان .. أقول بدل أن نفعل ذلك .. إذابنا نعكس القضية .. فهللنا وغنينا .. وبذلك أطبقنا البحر عليهم .. ولامغيث .. ولامجير !!

ترى ماذا حدث لهؤلاء القوم من بنى الانسان ؟!

وأى « أسفين » عنيف دقه الشيطان الرجيم فى قلوبهم .. فأصبحت لاتنتفض بالخير .. ولاتشعر بحبل الانسانية يربطهم بالناس جميعاً .

بل أى جنىّ حسود صوب عينه القاتلة إليهم .. فتقطعت بهم أسباب الألفة والمودة ..وبدل قوتهم ضعفا .. واتحادهم تنافراً .. فأصبحوا فى صحراء الكون قبائل متدابرة .. كل في اتجاه معين .. وعلى طريق خاص .. وليس فى وجدانهم أن هناك جيراناً لهم تربطهم بهم وحدة الدين والدم والانسانية ؟!!

وهل تعلمنا ذلك من سيرة رسولنا ﷺ ؟!

إعلموا إن كنتم لاتعلمون .. أن رسولكم كان مثال الحس المرهف .. والذوق السليم .. ومادمنا على ملته وطريقته .. ونتشرف بذكر اسمه الكريم عشرات المرات فى كل يوم .. فيجب إذن أن نتعلم على يديه درساً في الذوق .. واحترام شعور الآخرين :

ذات يوم كان الرسول ﷺ يجلس مع جماعة من صحابه .. فأبصر جنازة يهودى فى الطريق .. فلم يسعه إلا أن يهب واقفاً .. ويتساءل صحابه متعجبين .. كيف يحظى يهودى غار بهذا التكريم ؟

ولكن الرسول الكريم يقطع تعجبهم قائلا : أليست نفساً ؟!

فالدين الإسلامى قبل كل شئ دين الانسانية .. فإذا لم تربط الناس

وحدة الدين .. فهناك تهتف الانسانية فى أعماقنا !

فما بال قومى لا يرعون جواراً .. ولايحترمون شعوراً .. بينما تظلهم جميعاً عقيدة واحدة .. وتقلهم أرض واحدة .. ويجرى فى عروقهم دم واحد؟!

يالقومى .. ويالأمثال قومى :

لأناس عتوهم فى ازدياد !

أوروبـا..المتمدينـه !؟

نشـرت الصـحف أن أحـد الايطاليين قـدراعـه أن يرى ابنه يولد .. فتستقبله الحياة أقطع اليدين !

ثم فكر فى نفسه .. وقدر الشقاء الذى سيلقاه طفله فى حياته المقبلة .. وأمام هذا الاعتبار نراه يقتله حتى يريحه من مستقبل مظلم ينتظره . وأنا أضع هذه الحادثة أمـام أنظار حـضـرات المستشرقين .. والجاهلين الذين هاجموا العرب فى جاهليتهم الأولى .. هجوماً أعمى .. واتخذوا من وأدهم أولادهم مظهراً مشيناً .. يمثل وحشية العرب .. وتجردهم من أسمى العواطف الانسانية .. وأحب أن أهمس فى آذانهم قائلاً :

إذا كان الوأد موجوداً الآن .. وفى القرن العشرين .. وفى أوروبا أم الحضارة والمدنية .. أفلا نلتمس بعض العذر لجاهلى عاش فى القرن الخامس الميلادى .. حيث لاتغمره أضواء المدنية .. إذا ماسولت له نفسه أن يقتل ابنته حرصاً على الشرف الغالى ؟!!

« مقياس العالم »

سئل الامام مالك رضي الله عنه في ست وثلاثين مسألة .. فأجاب عن ثلاثة بنعم .. ولم يعرف الباقي .

ومع هذا .. فهل لنا أن نحذف اسم الامام مالك من قائمة العلماء ؟

كلا .. فسيظل في أخلادنا عالماً واسع الاضطلاع . نافذ البصيرة .

فالعلم بحر لايصل إلى اخره أي سابح ماهر .. مهما خاض فيه وسبح.

« وما أوتيتم من العلم إلا قليلا »

وليس المقياس الصحيح للعالم أن يكون خزينة مملوءة بالمعلومات والأحكام .. ولكن العالم حقاً .. هو الذي يحمل في نفسه الاستعداد لفهم أية مسألة تعرض عليه .. فليت زميلي كان يعلم هذا .. إذن لكف عن عتابي لأني رميته بأنه لايعرف مسألة معينة ! كيف أرميه بالجهل .. وهذا وصف لايليق به كطالب مثقف ؟!

إنه الانسان .. كان ولم يزل مغرورا !

الانسان حيوان قاتل !

قرأت فى أحدى الصحف : أن كلباً وجد أرنباً يوشك أن يقع فى بئر فأسرع إليه وأنقذه من موت محقق .

وفى نفس اللحظة .. وعلى نفس الصفحة .. قرأت أن « شلة » من الشبان الأمريكيين خرجوا فى نزهة .. فصادفوا شاباً يسير وحده .. فدعوه ليتريض معهم .

ثم لم يلبثوا أن طرحوه أرضا . وجعلوا يحرقون جسمه حتى لم يبق منه إلا ذبالة .. وكل هذا كان على سبيل التسلية !!

أرأيت ياقارئى .. كيف كان الكلب وفياً .. وكان الانسان غادراً ؟! كيف انحطت العواطف النبيلة فى قلوب البشر .. وتقطعت بينهم أسباب المحبة .. فى حين أن الكلاب المضروب بهم المثل فى القذارة عرفوا واجب الانسان فأدوه عنه !

أجل .. لم يعد الانسان حيوانا عاقلاً .. ولكنه أصبح الآن حيواناً قاتلاً!!

مـن الزلازل .. (١)

إلـى علوى المنـازل

كل شئ فى الوجود يبدو ساعة الميلاد صغيراً ثم يكبر وئيداً : النواة الضاوية غداً تصبح شجرة فرعاء . والطائر الغض .. ينبت مع الأيام ريشه . ثم يخلف العش الضيق وينطلق فى مسرى الهواء بازياً .

والطفل الصغير .. يتخطى مراحل النمو طفلا فصبياً فيافعاً .. ثم يسوى بعد ذلك رجلاً .

بيد أن الأحداث التى تلم بالأفراد والأمم لها شأن آخر :

إنها تبدو أول الأمر كبيرة كأنها الجبال الراسية .. ثم تعود القهقرى صغيرة لاتكاد ترى !

وكأين من إنسان فجع فى أمه وأبيه .. وصاحبته وبنيه .. وتحتل النكبة مساحة النفس كلها فتملك على القلب الجزوع أقطاره ..

ولكن سيلا من عواطف الأخوة وحنان الإنسان يشق طريقه إلى هذا الخافق المعذب فيغسل أساه . ويطوى همومه .. ثم يحمله إلى الشاطئ البهيج تارة أخرى .

ويعود إلى الفؤاد المعنى رشده الغارب ليرى به : كيف أنه لم يكن فى

---

(١) الكلمة التى حجبها الرقيب فلم تنشر .. وبقيت معى كما هى .. ثم نشرتها مجلة « الهدى الاسلامى » الليبية كما هى بمناسبة زلزال المرج .

نكبته وحيداً .. وكيف أن صدى آلامه قدرنّ فى قلوب كبار .

وفى غيبة الآلام الضاغطة ينطلق به قطار الحياة تارة أخرى .. مخلفاً من وائه أشباح الأمس تهرب مع الأشجار إلى الأفق البعيد .. وهنا يدرك بعمق فلسفة الحياة .. وحكمة القدر عندما يمتحن أمة للمجد :

إن إحساسك بالكأس الحلوة يزداد إذا شربتها بعد كأس فيها مرارة!

وكذلك إدراكك لمعنى المجد ومفاهيم الحياة : وكلما بذلت أمة فى سبيلها من الأموال والأنفس والثمرات كلما كان طعم الانتصار فى حلقها حلو المذاق .

وإزاء متعة الكفاح وروعة الغاية تطير بها الأشواق صاعدة فى جو السماء .. وتحملها الاجنحة الرفافة من وهدة السفوح لتعيش هناك على ذرا القمم .

ذلك بأن طبع الإنسان كالماء الدافق يطلب الهبوط دائماً .. ولكن الله سبحانه وتعالى بالترهيب .. بالزلازل يبوئه مكاناً علياً .. يشرف منه على آفاق أوسع .. فيحيط برقعة من الكون أكبر .. وبذلك يعمق فهمه للمعانى . وتصح صلته بهذا الكون .

وليت شعرى لو عاشت كل أمة آمنة مطمئنة . يأيتها رزقها رغدا من كل مكان ؟!

إن مناعم الحياة ستخلد بها إلى الأرض حتماً !

ثم تدور بها خواطرها حول مفاهيم هابطة من شهوة النفس وحب الذات .. ولاترف منها الروح إلى العالم الأسنى .. ويظل القلب حبيساً .. محدد الإقامة .. خلف قضبان من الضلوع فلا ينفعل بمعنى كريم .

وكيف تستطيع أمة إيفت روحها وجمد قلبها أن ترقى إلى « الكرامة » التى اختص الله بها بنى آدم ؟

إن الطريق إلى هذه الغاية صعب المرتقى :

وإن أولى الناس بها للذين صابروا الزمن وكابروا الأحداث .. أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى .. بالشدائد .. بالزلازل فنجحوا فى هذا الامتحان !

وإذا كانت قواعد الرقى إلى درجات الدنيا هى السن والكفاءة . فإن من قواعد السمو إلى درجات الآخرة :

كم حادثا تخطيت .. وكم عقبة اقتحمت ؟!

« أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم :

مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه: « متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب »

وكأن الله جلت حكمته يذكر الأمة بالأحداث :

ليصحو الغنى فيبذل .. وينشط الكسول فيعمل .. ويهب الذكى فيخترع .. ويزايل الرئيس مكتبه هذا الأنيق الوسيم .. ليمارس وظيفته هناك

على الطبيعة .. وبين كثبان الرمال !

ويتحول العالم فى أتون هذه المعركة من مجادل فى مكتبة إلى جندى فى كتيبة !

وتفتح عينيك لترى صورة جديدة للأمة .. فإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً :

تحركت الأرض فتحركت معها النفوس .. فدارت الآلة وزايلها صدأ تراكم عليها أمداً طويلاً .

وزلزلت الأرض زلزالها .. وأخرجت أثقالها .. فأخرجت الانسانية فضائلها ! :

كل فتى .. كل فتاة .. هاهم أولا يهرعون إلى البذل .. ولو كان هذا المبذول قطرات من دمائهم ..

وتطفو على السطح معان فى : الجود والشجاعة والرحمة ..

ويزداد إيماننا بالإنسان صانع التاريخ .

هذا الإنسان البطل .. الذي لم تهزه النكبة .. وإنما ساقته إلى المجد سوقا .. وسرى الشعور الجماعى كالنار كالتيار فى جسد الأمة فدبت على الأرض كتلة واحدة :

لقد التقى الأمير بالمأمور .. السالب بالموجب.. فأضاء المصباح .. ووضح الطريق . وتناسقت الخطوات فى صحبة قال كبار .. وفى ضوء هذه

المعانى أفهم قوله تعالى :

« وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون »

إن وقع المصيبة لم يذهب بهم إلى الماضى ومآسيه .. ليعيشوا فى أغلال حزن على فائت .. ولم يشحن قلوبهم بالخوف من المستقبل ومفاجآته فيقيد خطاهم حتى لاتنطلق عبر الطريق .. وإنما رجعوا بأنفسهم لله .. وفتحوا أعينهم على الواقع الماثل فرضوا به . فلسفوه بعيداً عن الحزن والخوف .. ولكن فى ظل الإيمان بالله .. « بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون »

هذا الصنف الذى فتح قلبه لله .. واستجمع اطراف نفسه يخطو على الطريق راضياً بقضائه .. هذا الصنف .. عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون .. ومن قلوبهم التى صقلتها المحنة تنبعث أضواء تسعى بين أيديهم .. ليصلوا فى سناها إلى أكرم غاية .

بيد أن هناك دون هذه الغاية ألواناً من المتاعب : ولكنها متاعب الصحة وليست متاعب المرض ؟!

إنها متاعب رجل حملته قدماه ساعات فى هجير الشمس يبنى فى «المرج » بيتاً متهدماً .. وليست متاعب غني مترف تؤله قدمه من طول الرقاد على سرر مرفوعة فى ظل ممدود وماء مسكوب !

ولقد كان لنا فى التاريخ أسوة :

إن قسوة الزمان جعلت من بنى إسرائيل دولة !

وجعلت من بين اليهود من يمسك بيديه الخيط السحرى : يشدونه فترفع حكومة .. ويرخونه فتهوى أخرى !

وذات يوم .. وعندما فتحوا أعينهم على مباهج الحياة الدنيا تخلى عنهم مركزهم المرموق فى نفس اللحظة .. ولنفس السبب !

وهو الشئ الذى حذر الله تعالى المسلمين منه عندما انتقلوا إلى المدينة وأغراهم نعيمها يوماً :

« ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ومانزل من الحق ولايكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون »

وواجه المسلمون التطبيق العملى .. حيث دبر لهم القدر الحكيم محنة أخذت طابعاً عنيفاً .. ولكنها كانت فى نفس الوقت منطلقاً لانتصارات عظمى..

وكان ذلك فى غزوة الخندق :

« هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً »

وكان هذا الزلزال بداية مرحلة أكثر إجابية فى تاريخ الإسلام :

فقد تحول المسلمون – بعد أن صقلتم المحنة – من موقف الدفاع .. إلى قوة ضاربة تستطيع تأديب العصاة فى فارس .. وفى الروم أيضاً

« وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطؤوها وكان الله على كل شئ قديراً »

وهكذا استحالت المحنة منحة !

وإنها لكذلك فى مجالى الطبيعة : ألم تر إلى الشجرة إذا أنت قلمتها أو شققتها ؟

إنها تزداد ثمراً .. وتسمق فرعاً .. والهواء أيضاً : إنه يظل نسيماً عليلاً يداعب الغصون .. فإذا ضغطنا عليه اشتد .. وتحولت النسمة الرقيقة إلى أعصار عارم القوة .

وما النكبة التى أصابت الأندلس إلا نوعاً من الضغط العالى تحول بعده الإسلام إلى إعصار تخطى الجبال إلي إيطاليا وفرنسا .. ونثر هناك بذور النهضات الحديثة فى أوروبا .. وخفقت هناك للاسلام أعلام .. وهكذا يثاب « الأوربى » رغم أنفه !

ومالى لاأذهب بعيداً واذكر قصص حياة أنبيائنا والمرسلين عليهم الصلاة والسلام وكيف اقتحموا العقبة .. وكابروا المحن فانتصروا :

آدم : [1]

---

(١) راجع فى ظلال القرآن .

يخرج من الجنة باكياً فى أعنف ضائقة تواجه إنساناً .. ثم يصبح بعد ذلك فى الأرض خليفة ..

ونوح :

يضربه الملأ من قومه حتى غشى عليه .. ثم تكون نجاته .. بينما هلك للجميع .

والخليل :

يلقى فى نار حامية جمع لها الحطب شهراً ليخرج من الباب الخلفى مصحوباً بعناية الله .

والذبيح :

يمد رقبته للذبح صابراً محتسباً .. وينزل الفداء من السماء ..

ويعقوب :

تذهب الأحزان نور عينيه .. ويعود البصر الذاهب تارة أخرى مع لقاء الحبيب .

ويوسف :

يوسف الوحيد الغريب .. يصبح يوسف الصديق وعلى كل لسان يدور ذكره !

ومريم :

مريم البتول تواجه تهمة فى أعز ماتملك فتاه شريفة .. ويكون الاصطفاء .. وتكون الطهارة .. على نساء العالمين .. وهكذا كانت حياتهم : وكذلك يجب أن نكون :

على أشواك من غرائز البشر وزلازل الحياة ساروا .. وإلى رفيع الدرجات وعلوى المنازل وصلوا .. فتقدمى أيتها المصائب وأضيئى « ظلام » شعرنا .. ولكن لاتنسى أيضاً أن تبيضى سواد حياتنا !!

من وحي الجمهورية

يامنقذ الوطن المهيض العانى ∴ حطمت صـرح الظلم والعدوان

أنقذته من مخلب الدب الذى ∴ راع النفوس ولج فى الطغيان

طهرتـه فى لمحـة من حفنـة ∴ خرقاء .. داست حرمة الانسان

لله درك من حكيـم حـازم ∴ علمتنا أن الحياة تـوائى !

بالأمس قال المرجفون لحزبهم : ∴ والله ريـح هـب فـى فنجـان

لم يعلموا أن الكتائب أقبلت ! ∴ جاءت لتقطع دابر الشيطـان

جاءت فذكرنى عجيج خيولها ∴ بابن الوليد محطم الرومـان

جاءت لتحيى فى النفوس رغيبة ∴ هذا الفقير و « فرتملى» سيان !

يأيهـا المظلـوم حقـك عائـد ∴ حتما .. ولو فى باطن الحيتـان

مات النبيل .. ولم يعد «متآمر» ∴ وكفى تآمرهم على الأوطـان !

اليوم يشرب من تناهت خمره ∴ كأسـا دهـاقاً مـن حميـم آن

ماقيمة الانسـان فـى ألقابـه ∴ فالنبل في عمـل وفى أيمـان

****

يادعوة الاسلام جئتك حاملاً ∴ سيفي .. لأرفع راية القـرآن

انى عشقت « محمداً » وأتيته ∴ «لبيك .. أين من الصفوف مكانى»؟

ولو أن ملك الموت أزهق مهجتى ∴ لأتيت أسرع حاملاً أكفائـــى !

أنت المخضوم .. لو أردنا أننـا ∴ نحصى الشباب لكنت فى الشبان

وإذا عددنا فى البلاد شيوخنـا ∴ نلقـاك شيخـاً ثابت الأركان

الحزم أنت .. وربمـا ياسيدى ∴ أفنيـت نفسـك فيـــه بالمجان

قدت السفينة في خضم هائـل ∴ ونجـوت رغـم براعـة الخـوان

خذها من القلب الكبير تحيـة ∴ ياصــاحب القلـب الكبير الحانى

أنا حائر ياقائدى .. من ذا الذى ∴ أهـــديه تهنئتى وذوب جنانى ؟

أأخصها بك أنت وحدك مفرداً ؟! ∴ لا .. ! نحن فى السراء مشتركان

فلو أن مشتاقاً أتـاك مهنئــاً ∴ الله يشهد .. سوف لا ينســانى !

أنـا لاأقـول مداهنـا متملقـــاً ∴ لم يختلف فيما سمعـت اثنان

لبيك يا مصر

أفديك يا مهـد الحضـارة بالـدم ∴ طال السكوت .. تيقظى وتكلمى

قامت شعوب الأرض تنشد مجدها ∴ لابـد أن تمضـى وأن تتقـدمى

احمل سلاحك يافتى النيـل الـذى ∴ خـاض المعارك ظـافراً لم يهزم

هيـا لتحريـر الكنانـة ضاريـاً ∴ صفحاً .. بتهديد العدو المجرم

أرواحنا فوق الأكف رخيصة ∴ وغـداً تذيقهمو عذاب جهنـم

****

لن ينفع الدولار فى ساح الوغى ∴ حتى ولو فاقوا سماحة حاتم !

فالحق يا حصن العروبة وحده ∴ لاشك أعظم قوة فى العالم !

****

هتفة حائرة

أنا فى حياتى كالفراش الحائر ∴ هيمان .. أضرب فى خضم زاخر

أنا تائه بين الصخور .. فليتنى ∴ أجد السبيل الى الطريق العامر

أنا شاعر يقضى سحابة يومه ∴ يبنى بيوتا من شباب زاهـــــر

أنا شمعة تفنى ليبصر غيرها ∴ من لى بحساب يعد مآثرى

كم ذا قضيت لمستجير حاجة ∴ واذا بلهفته دهـــاء الغادر !

ماضرنى بذل الجهود .. وانما ∴ يدمى فؤادى أن تكون لساحر !

*****

يالائمى فى الحب .. لاتك قاسيــا ∴ فى الحكم .. ولترحم فؤاد الشاعر

فالحب يحفظ للقلوب رواءهـــــا ∴ كالماء للعشب الكسير الضامر

من أين يأتينى القريض وسحـــره ∴ ان غاض نبع الحب بين مشاعرى!

فأعشق جمال الكون .. يامن لمتنى ∴ فى عشق مخلوقات رب قادر!!

حمامة..وصياد

دعنـــى بربـــك دعنـــى ∴ يامـــن أراك تغنـــى

أنـظـــر بعينـــك حتـــــى ∴ تصفـو الحيـاة لقـن

عندى من الزغـب عشـر ∴ عـن حالهـا لاتسلنى !

هــلا رثيــت لحالـــــى ∴ أرجـوك حقـق ظنى !

****

كـن منصفـا يارفيقـى ∴ واقطع حبال التجنـى

واصطد اذا شئت ذئبـا ∴ ان كنت للخير تبنـى

مالـى أراك عبوسـا ∴ ماذا أغاظك منى ؟ !

هــذا رجـاء ضعيـف ∴ تغنيه قطعة جـبن !

فكـــر ولا تتعجــل ∴ فاليســر صفو التأنـــى

باللــه طمئـن فـؤادى ∴ ياوليتى .. لم يجبنى !

****

ان لم أصبك بسهمى ∴ فأنــا أبــوء باثمــى

مــن ذا يفــرج عنـى ∴ مـن بعـد غم وهــم

الا الجنـاح الـــــذى ∴ يمحو تلهف جسمى !

لاتطلبى مستحيــــلاً ∴ فحبك الشـــئ يعمـــى !!

الذبح منـــى قضـــاء ∴ منفذ حـــين أرمـــــى

حالى كحالك .. عندى ∴ عشر .. فدونك سهمــى

واللــه أنــت فدائـــــى ∴ حتــــــى ولو كنت أمى !!

****

يـــارب أنت نصيـرى ∴ ارفــــع قضاءك عنى

ضــا ع الـذى يتمنـــى ∴ مــاذا يفيـد التمنـى ؟!

خذنى بأرضك خذنـى ∴ فقلبـــه لـم يسعنـى

أنا حامل الفأس

يا كاتبا : أيـن القلـم ∴ ابعث بـه ميت الهـمم
أنا حامل الفأس التـى ∴ فاضـت بأشتات النعم
يقتات أسيادى النضار ∴ وما أكلت سوى الندم
ضـن الزمـان علىّ بالقصـ ∴ ـر المفضض والخـدم
وأنا الذى مـلأ الجيـو ∴ ب وخيره فى الناس عم
وكذاك تعبس لـى بـلا ∴ دى ثـم تضحك للعجم!
ياقـوم ان اللـه قـد ∴ ضمن النجاة لم رحـم
ياقـوم لـى أمنيـة ∴ من عهـد عـاد أو ارم
ان قلت ردوا لـى حقـو ∴ قى وآثاروا ممن ظلـم
لايسمعـون لصرختـى ∴ ان الخصيم هو الحكم !
والحق فى كفـى يقـو ∴ ل هنا البرئ المتهـم !
وتضيـع أناتـى وآ ∴ هاتى بواحات العـدم

****

واليـوم أشعـر أن صـر ∴ ح الظلم فى مصر انهدم
ولسـوف أحيـا دائمـاً ∴ فى الناس مرفوع العلم
ويقدر اسعـاد الفقيـ ∴ ـر تقاس أمجـاد الامم
لابـارك المولـى عهـو ∴ دا ضيفت فيهـا القيم

الحب عشق الروح

جاءت تراود فـي دلال	∴	عذراء تمشى فى اختيال
لكأنها فينـوس تمـــــ	∴	ـضى فوق أفئدة الرجال
أو أنهـا ريـــم تبخـــــ	∴	تر بين كثبـان الرمـــال

****

الشمس راقصة الشعا	∴	ع تقدمت نحـو الزوال
والماء يجرى فى هـــدو	∴	ء عن يـ ين أو شمـــال
والغصن داعبه النسيـ	∴	م فراح يستبق الظلال

****

قالـت وفـــي نبراتهـــا	∴	لحن يحف به الجلال
ماجئت أطلب مغنمـــا	∴	أو ابتغى منك الوصال
لكنما أرجــو الاجــــا	∴	بة منك عن هذا السؤال
الحب أقصد فى شريـ	∴	ـعتنا حرام أم حلال ؟!

****

الحــب يا أختــى حــلا	∴	ل ليس فى هذا جدال
إذ ما تجـرد مـن خصا	∴	ل السوء أو فحش المقال

ولتسمحى لى أن أقرر ∴ أنـــه صعب المنـال !

فالحب عـبء فــــادح ∴ تعنو له شم الجبال !

****

زعموا بأن الحب قبـ ∴ ـلات .. وذاعين الضلال

زورو بهتـــان لعمـــر ∴ الحق من وحى الخيال

متع كعمر الزهر أو ∴ كالطيف .. ديدنها الزوال

ربت لـذاذة ساعـة ∴ لحقت بها محن طوال

حسبوا الجسوم هى الحيا ∴ ة .. وبئس مانطق الرجال !!

****

هل يستوى المنصور والمـــ ∴ ـهزوم فى يوم النضال ؟!

لايستـــوى كـــدر الميــــا ∴ ه .. وماهو الصفو الزلال !

الحب عشق الروح : بــــا ∴ ق .. رغم أحداث الليال !

لا الموت يفنيه ولا الإعراض يسلبه الجمال ..!

مـن الأعمـاق

يا قائدا حزم القيـادة ∴ فـض النـزاع بلا هـوادة

عشرون عاماً بل تزيـ ∴ ـد قضيتها أبغى السعادة

حتى يئست من اللقـا ∴ ء ويـت مسلوب الإرادة

وإذا بهـا فـي حوزتـي ∴ فنطقـت فـوراً بالشهادة !

****

ماجئت بابك مـادحـاً ∴ بل جئت أمنحكم قـلادة !

ماجئت أطلب مستحيـ ∴ ـيلاً أو ضياعاً أو سيادة

لكنـه الحـب العميـ ∴ ـق أطار من عقلى رشاده

فأتيت أسرع في خطا ∴ ى وقبلتـى دار القيـادة !

****

لاتعجبـوا لتطفلـى ∴ أو تعرضون بلا افادة !

أو تحكمون على بالجهل المركب والبلادة !

رؤياكمـو ياسيـدى ∴ أضحت لزاماً كالعبادة !

ان لم تجيبـوا رغبتى ∴ فأنا مريض فى العيادة !

والناس عندى كالبعو ∴ ضة والمقطم كالجرادة !!

إلى الاستاذ عثمان على عثمان

إلى البلبل الشادى على أيكة الذكرى ∴ أسطر ما أوحى الفؤادبة شعرا

لقد هزنى طرباً وضاعف نشوتى ∴ يراعك قد صغت القريض به سحرا

عهدناك سباقاً إلى الخير بينما ∴ نراك عفيفاً لا تريد به الأجرا

أحييك من قلبى تحية معجب ∴ بمنهلك الصافى وهمتك الكبرى

هنيئاً لك النعماء من عند خالق ∴ يزيدك إجلالاً فأنت به أحرى[1]

(١) هنا المرحوم الاستاذ عثمان على عثمان أخى الاكبر بحصوله على دبلوم معهد التربية العالى أو اخر الأربعنيات .. كلفنى المرحوم والدى أن أرد بتحية نيابة عن أخى الاكبر !! فكانت هذه الابيات

سيجارة...وشاعر

فى العهد الماضى دخل شاعر فنان على رئيسه فى الديوان مشعلاً سيجارة .. فهاج الرئيس .. وعقد له مجلس تأديب !!

ولم يكن يعرف أنه شاعر أو فنان .. فبعثت للشاعر بهذه النفثات :

عفتُ المغانى والشـــراب ∴ واستعذب القلب العذاب

لما رأيت الشاعـر الـــ ∴ فنـــان هـدد بالعقـاب

لما رأيت الحق فى الـــد ∴ يـــوان يعلـوه التـراب !

أو كل من جعل الصــــرا ∴ حة مذهباً .. لقى العتاب ؟!

أو كلما أمعنت فـى الـــ ∴ إحسان يمعن فى السباب ؟!

ويـح الزمـــان إذاتهـــا ∴ وى النسر وارتفع الغراب !!

****

لمــا رأى ضـــوء اللفـــا ∴ فة قال : ياسوء الحساب !

لكانـــه الخفـــاش يـــؤ ∴ ذيه شعاع من ثقاب !

فلربمـا كشـف الضيـــا ∴ ء مساوئاً خلف الحجاب !

فارتـــاع مـــن أنفاسهـا ∴ وأتاك بالعجب العجاب

يخشى على الالقاب أن ∴ تنساب فى هذا الضباب !!

فأتـــى إليـك بلجنــة	.·.	برهانهــا ظفــر ونــاب
هذا افتيات : ضل صا	.·.	حبـه وجانبـه الصــواب
ومــن الانــاسى حفنــة	.·.	يدميهمـو لمـس الثيــاب
وكذا الضعاف الأغبيـا	.·.	ء يصمهم نــوح الذباب !!

****

هــذى رءوس أينعـــت	.·.	أفلا تروم إلى ذهاب ؟
فاضرب بها عرض الجدا	.·.	ر فعيشها فينا خـراب
واهتف من الأعماق صدا	.·.	حا : تقدم يا شبــاب
ولتلتمس عذراً لأعشــى	.·.	خانه ضوء الشهــاب
لم يسمع الشعر المصفى	.·.	دونه الشهد المــذاب
أزرت محاسنـه بلبـــــ	.·.	ـنان وروضات خـلاب
لم يسمع النغم الشجـى	.·.	فهل كشفت له النقاب ؟!

****

اسكب لحونك وارتقـب	.·.	ياسيدى فصل الخطاب
سيغادر الكرسى مخـ	.·.	ـتارا .. ويؤثر الانسحاب !
فهنا سيلقاك الرئيـــ	.·.	ـس فبت مرهوب الجناب
ويبيت مرءوساً يدمــ	.·.	ـدم ظهره سوط العقاب !!

دمعة وفاء

لم يغن عن ريب المنون طبيب ∴ و سرى إلى دار الخلود حبيب

والعين قد بخلت بسكب دموعها ∴ حزنا على القبس المضئ يغيب

أكذاك تفجعنا المنية فى فتى ∴ لم تثنه عما يريد خطوب

لكنها الأقدار ألقت سهمها ∴ فاذا به خير الرجال يصيب

ياسيدى لك عند ربك منحة ∴ قصر مشيد فى الجنان رحيب

وغدا تكون به وتسمع هاتفا ∴ مرحى أتاكم يارفاق حبيب[1]

(1) هو المرحوم عبد المقصود حبيب « بك »

ذكرى الشهيد الأعـزل

ذكراك فى نفسى أجل وأصدق .·. من كل مـايـهـوى الفـؤاد ويعـشق

ذكـراك ياأبتى منار فى الدجى .·. يهـدى إلى الشطين من هو غـارق

مـازلت ملء السمع فى غدواتنا .·. ورواحـنـا أبـداو ريـحـك تعـــــبق

لهفى عليك وأنت فى دار البقاء .·. ونحـن فى دنيـــا الفـنـاء نـحـلق

فى ساعة يخبو الشعاع موليا .·. عـــجــلان .. إنى لا أكـاد أصـــدق

مـامات من هزم الضلال بحكمة .·. هتــفت لهـــا الأيام وهى تصـــفق

نم هادئاً أبتى الشهيد فجندكم .·. فى السلم أو فى الحرب لن يتفرقوا

بالروح أفدى العهد غير مقصر .·. رباه .. نعم العــهـد .·. نعم الموثق

شــــريـد

بالأمس .. دفنت سعـادته فى الرمس .. وانطلق يضرب فى جنبات الأرض هائماً شريداً .. سلبه طاغية من أعيان الريف ثروته ظلما .. وأسلم وجهه إلى الله .. وفوض أمره إليه .

أصبحت فى كنف الحياة غريباً ∴ ومشيت مطروداً أدب دبيبـاً

ونأيت عن مهدي وعشي : قريتى ∴ ياويح نفسى قد فقدت حبيباً

فارقت أهلى والعشيرة آسفـــاً ∴ ولبست ثوب المذنبين قشيباً

يا من تطاردنى وترفل ناعمـــاً ∴ زعموك للقوم الكرام نقيباً

ونظرت حولى كى أراك مواسيـاً ∴ لما أجد إلا العذاب ضروباً

ودفنت فى لحد الشقاء سعادتى ∴ فأمرت أمراً مجحفا وعجيباً

دعنى لربى .. منه بلسم علتـى ∴ أنعم بربك راحماً ومجيباً

غمر الخلائق عطفه وسخـــاؤه ∴ فى كل وقت قاصياً وقريباً

دعنى .. فإنى ضقت ذرعاً بالذى ∴ سلب النقود فما اخذت نصيبا

ولد الهدى

جلس ابن هاشم حائراً .. أين الفدا ؟! حيران .. يرتقب النتيجة شارداً

فلقد أجاب الله مانادى به ∴ لو كان لى عشر سأذبح واحداً

لكن عبد الله قرة عينه ∴ أيذيقه بيمينه كأس الردى ؟!

فأتاه عراف يهرول قائلاً ∴ بأبى وأمى قد أتيت مساعدا

فلتحضروا مائة من الأبل..اسرعوا ∴ ربما تكون لطفلكم كبش الفدا

فأتى عليها السهم .. ثم تصايحوا ∴ هاتوا القدور بربكم .. هاتوا المدى

وإذا ابن هاشم قائماً من فوره ∴ ويخر لله المهيمن ساجداً !

وأراد ربك أن يجئ محمد ∴ ينجي العباد من الضلال إلى الهدى

فى يوم مولدك الكريم تصدعت ∴ أركان كسرى .. ثم بات مهدداً

واهتزت الدنيا وراحت تقتفى ∴ أثر الوليد بكل عين .. مذبدا

فى يوم مولدك الكريم تحطمت ∴ آمال من ذبح الفضيلة عامداً

هبل العظيم الشأن شارف حتفه ∴ وغدا ستبصره تراثاً بائداً

وتآمر الطغيان فى أوكاره ∴ لكنما أعماله كانت سدى

وتقشعت سحب الضلالة عندما ∴ نادى البشير مع الصباح مردداً

ولد الهدى .. شمس السعادة أشرقت ! ∴ حيـــوا معى طب القلوب محمداً !!

لهفى على الاسلام يذهب مجده ! ∴ ويبيت مقصوص الجناح مقيدا

عار علينا .. أن يراد بـــه الأذى ∴ فـــإذا استغاث فلاتمد له يــــدا

هبوا املأوا الآفــاق .. لاتترددوا ∴ كونوا عليا فى القتال وخالداً !!

يا صاح ماذكرى النبى المصطفى ∴ طبـــل يدوى فى الفضاء معربداً

ياصاح ماذكراه فـى أن ترتقـــى ∴ ظـهر المنابـر هائجـاً متوعـداً

ياصاح ماالذكري له أنــا نـــرى ∴ خطبـاً تـقال هنا .. رثم قصائدا

لكنها لابـــد أن تــــك صـرخـــــة ∴ فى وجه من داس الكرامة واعتدى

يرضى النبى محمد فـى قبـــره ∴ ونعيـد مجـــداً للحنيفـة تـالـدا

****

ومن ناحية أخرى ماقيمة المرشد يأمر بمعروف وينهى عن منكر إذا كانت كل أدوات التوجيه تقريباً لاتعطى من مجهودها قدراً يساوق مركز الدين كرائد للحضارة .. وليس فقط تعاويذ تتلى ؟

على أن تخصيص رجل يرتدى زياً معيناً ليكون رجل الدين لايفيد الدعوة إلى الله كثيراً !

يجب أن يختفى من أذهاننا معنى « رجل الدين » لأن كل من يعمل للدين فهو رجله ولو لم يلبس العمامة !

لأن انحصار الداعية فى فريق معين من شأنه أن يخفف من أقبال الناس على الوعظ .. لزنهم يؤدون عملاً واجباً يأخذون عليه أجراً .

أما إذا انداحت الدائرة وتخرج الطبيب مزوداً بقدر كاف من الثقافة الدينية .. وكذلك الضابط والمهندس والمدرس .. لكان ذلك أجدى وأبقى ..

وإليكم مثلاً :

كل إنسان ساقه الحظ إلى المستشفى مرة - فإنه يدرك سر مشاعر المريض تجاه طبيبه .. وكيف أن ذكرياته معه أثناء المرض والعلاج .. لاتنسى .. وكذلك حديثه الموحى عن « قدرة الله » الذى صنع أجهزة الجسم هكذا .. وعلم الله المحيط لك هذه الدقائق .. هذا الحديث أو قل هذا الوعظ الغير مباشر أجدى من مجرد كلام لم تصقله التجارب .

والضابط أيضاً مثل أعلى للجندى يحب دائماً أن يحتذى به وينسج

على منواله ..

فإذا ماانتهز القائد خلال المعارك مثلاً فرصة النصر ليردها إلى أسبابها من الإيمان بالله والتوكل عليه .. ومن حدة الصف ووحدة الهدف .. مذكرا بمواقف الخالدين من قبله فى الصبر وتحمل التبعات ..

... لو حدث هذا لدخل على النفس هذا التوجيه بلا استئذان .. وأثر على السلوك أيضاً تلقائياً لتصبح الفضيلة عادية كعملية التنفس تماماً !

ولهم الله أعداؤنا الغربيون :

لقد كانوا وعاظاً نابهين قبل أن يكونوا قوادا فاتحين ! إنهم يعلمون أن قطعة من السكر لو وضعت فى إناء كبير لم يظهر لها أثر ولا تترك فى الفم طعماً .

أما إذا وضعت فى غرفة اليد فإن مفعولها يبين .. وطعمها يؤثر .. ومن هنا اختاروا أن يضعوا المعانى الكبيرة فى « غرفة » من الألفاظ قليلة على حد ماقال نابليون لجنوده :

تقدموا : فإن أربعين قرناً من الزمان تطل إليكم من وفوق قمم هذه الزهرام !

وكان ماكان مما لست أذكره !

إنها لعظة بالغة أقدمها للواعظين .. ولكل من أتاحت له الظروف أن يخطط للواعظ والإرشاد فى دولة ما

وكلمة أخيرة :

رحم الله أجدادنا وسقاها الله أياماً عاشوها :

لقد كنوا يتعلمون من غيرهم صناعة الورع والخشوع .. ثم خلف من بعدهم خلف كل همهم تعلم صناعة الكلام والسلام !!